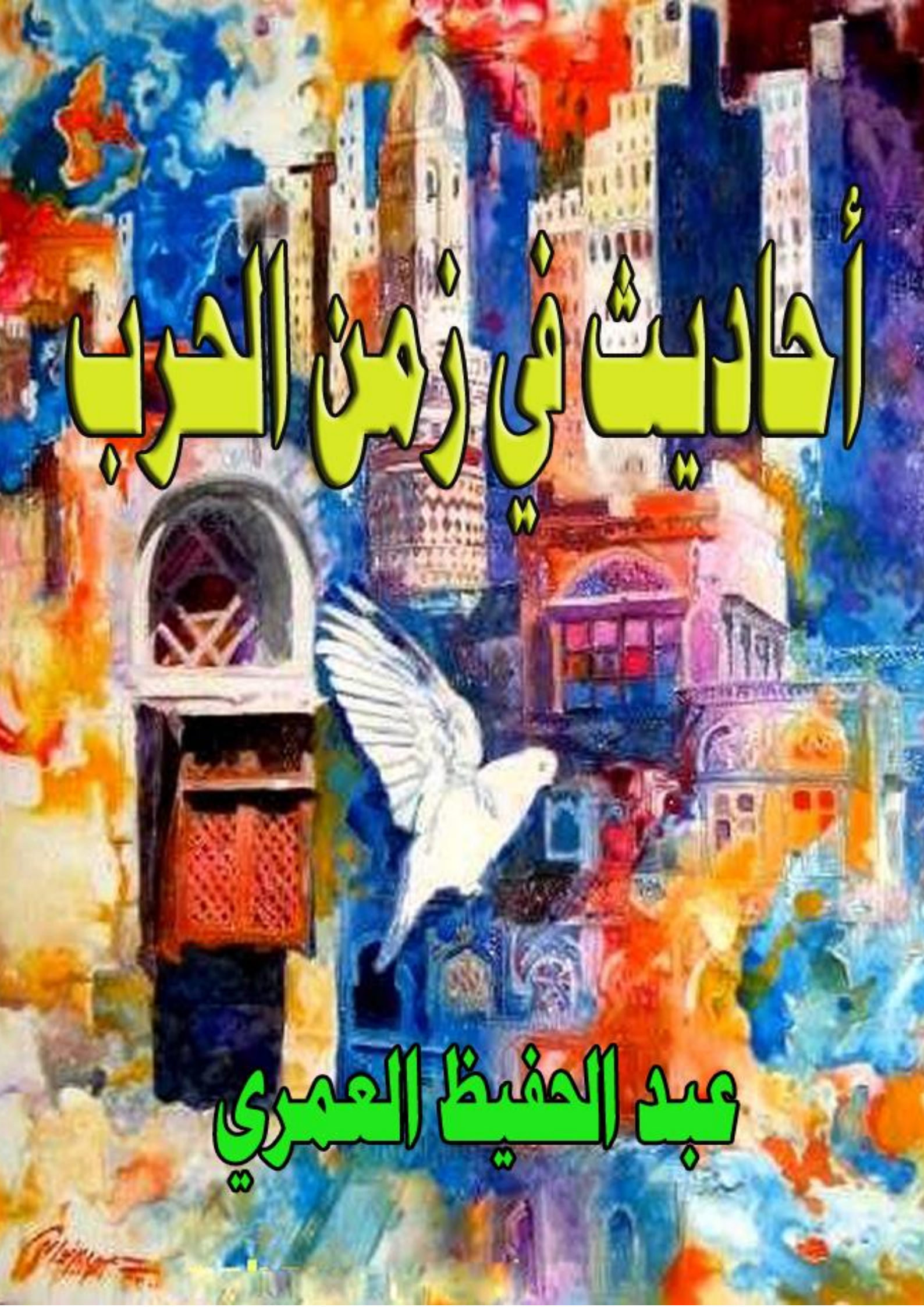
أحاديث في زمن الحرب
عبد الحفيظ العمري

نوع العمل: مقالات

اسم العمل: أحاديث في زمن الحرب

اسم المؤلف: عبد الحفيظ العمري

لوحة الغلاف: للفنان اليمني عبد الجبار نعمان

الناشر: المؤلف نفسه

الطبعة: الأولى - فبراير ٢٠٢١م

أحاديث في زمن الحرب

(مقالات)

عبد الحفيظ العمري

المحتويات

مقدمة

١. أحاديث في العاصفة

٢. الإنسانية المفقودة

٣. التعايش أو الانقراض

٤. التعايش والإعلام

٥. الثنائية الخطرة

٦. العرب والدين والسياسة

٧. اليمني المغترب في داره!

٨. الوطن العربي الكسير!

٩. الأيام وإماطة اللثام

١٠. لعبة الحرب

١١. أحاديث في زمن الحرب

١٢. أغاني الأعراس واللُحْمَة الوطنية

١٣. اليمني المقهور

١٤. ذهول أيام الهزيمة
١٥. عندما يحدثنا التاريخ
١٦. رهان في المعتقل!
١٧. رسالة إلى البردوني في قبره
١٨. شعب على رصيف الانتظار
١٩. عن الحرب والتعقل
٢٠. يوم استثنائي في إب
٢١. عاد أيلول

مقدمة

إنها الحرب... سقوط كل القوانين.

إنها الحرب... سقوط إنسانية الإنسان ودخوله عالم الغاب.

إنها الحرب... تراجع عن كل ما كسبناه في رحلة الحضارة.

إنها الحرب... تفتت الجغرافيا تحت معاول استحضار خلافات التاريخ.

إنها الحرب... تحاور مجنزرات القتال بدلا من تحاور الإنسان مع الإنسان!

إنها الحرب... تشظي المجتمع وقِيَمه.

إنها الحرب... صنم المستبدين وتجار السلاح وجامعي الثروات.

إنها الحرب... اضطراب البوصلة في الإشارة للاتجاه الصحيح.

إنها الحرب... أحلك بقعة في تاريخ الإنسان الحديث والقديم على حد سواء.

إنها الحرب... مصنع لكل رذيلة ورزية ينالها المجتمع أثناء الحرب وما بعدها.

إنها الحرب... تخلي الإنسانية عن هذا اللقب العظيم وترديها إلى حضيض اللاإنسانية، لا أقول الحيوانية!

إنها الحرب... وكفى بها كارثة لو تعلمون!

أحاديث في العاصفة

أحاديث في العاصفة اسم كتاب لمحمد حسنين هيكل - الكاتب المعروف- أظنه مناسب كعنوان لهذه الأحاديث القصيرة اليوم، ونحن تحت ضربات طائرات عاصفة الحزم.

(١)

أيها المتخندقون في خلافات التاريخ تناسوا الخلافات الآن من أجل أن تنقذوا ما بقي من الجغرافيا!

فإن من الغباء أن نتذكر خلافاتنا البينية في هذا الظرف، بدل أن نتوحد على حل تلك المشاكل العالقة والتي أوصلتنا لهذا المأزق!

يا يمنيون، اعملوا شيئا من أجل بلدكم، أضعف الإيمان أن توقفوا المهاترات التي بينكم!

(٢)

هل يذكر اليمنيون هذا الحديث؟

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا: وفي نجدنا، قال: اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا"، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا فأظنه قال الثالثة: "هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان".

(٣)

عندما تجد الإعلامي مجرد "شحات" بباب أولي النعم.

وتجد الناشط مجرد "أفّاق" يقتات من القضايا التي يتبناها.

وتجد السياسي مجرد أداة بيد "الحزب" بدون أي رأي له.

وتجد الحزب مجرد "دكان" للوصول للمنصب.

وتجد المثقف مجرد "بوق" لمنْ يدفع أكثر.

وتجد المواطن المطحون "يبوس" اليد التي تظلمه ويلهج بحمده على كسرة خبز رماها له!

وتجد الناس تشكر "السارق" لأنه أبقى لهم القليل بعد ما نهب كل شيء.

عندما تجد كل هذا حاصلا في مجتمعٍ ما.

فلا تستغرب أن تصبح أحواله على أسوأ حال!

(٤)

كلنا مغلوبون

لا يوجد منتصر واحد.

هل ندرك ذلك؟

فيا أيها السياسيون أنتم بتعنتكم تشيعون الوطن إلى المجهول!

(٥)

لم تعصف بنا الطائرات إلا بعد أن عصفت بنا الخلافات والجدالات!

(٦)

العنتريات ولى زمانها يا جماعة.

المثل العربي يقول: الكثرة تغلب الشجاعة.

يا أطراف النزاع جميعا، تنازلوا من أجل اليمن.

تنازلوا من أجل المستقبل.

تنازلوا من أجل أنفسكم على الأقل!

(٧)

يا أطراف الصـــراع، ندعوكم خطوة للوراء في مواقفكم السياسية؛ أحسن ما ترجع اليمن قرون كاملة بعد ذلك!

(٨)

يقول الفيلسوف الألماني هيجل:

"إننا نتعلم من التاريخ درسًا مهمًا، وهو أن أحدًا لم يتعلم من التاريخ"!

وهذا ينطبق علينا اليوم.

وإلا ماذا صنع التدخل الخارجي من أجل العراق؟

ومن بعده من أجل سوريا؟

وكذلك من أجل ليبيا؟

ابحثوا.

يقول الكاتب عبدالباري عطوان - من مقال إنها الحرب الطائفية إذًا: "الحل العسكري لم يحسم الحرب في سورية، ولن يحسمها في اليمن بالتالي، وحتى لو حسمها كما هو الحال في ليبيا (تدخل الناتو) فان النتائج جاءت كارثية".

(٩)

"هذه الأموال التي انفقت في الأيام الثلاثة الأولى من الحرب في اليمن وما أحدثته من دمار يمكن أن تعيد بناء اليمن من جديد، وتؤسس لصناعات ومشاريع توفر وظائف لأكثر من خمسة ملايين يمني عاطل عن العمل على الأقل".

الكاتب عبد الباري عطوان - من مقال حوار مع صديق سعودي.

(١٠)

قلتم كثيراً، وما قلتم، أكاشفكم ...

لا يعرفُ اللهَ منْ لم يعشقِ الوطنا

مولانا عبد الله البردوني

***

الإنسانية المفقودة

نجد صـــعوبة في الغوص في أعماق الإنســـان العربي المعاصـر للبحث عن إنسـانيته المفقودة، أو لنقل المشـوهة؛ والتي شوهتها الأحداث الجارية!

هذه الإنســـانيـة التي يفترض أن ترتقي على شـــهوة المصـالح والانتماءات الضـيقة التي تكبل هذا الإنسـان، وهو يشـاهد ما يجري على الأرض من مناطق الصـراع سـواء في اليمن أو سـوريا أو العراق، خصـوصـا والإعلام أصـبح يبث صـــور القتلى على الهواء مباشـــرة بعد كل مجزرة، لكن المفارقة أن تسـمع الشـماتة من هذا الطرف أو ذاك في أولئك القتلى وإن كانوا من المدنيين!

هل أَلِف المواطن العربي صـــور الجثث طيلـة الخمس السنوات الجاف المنصرمة حتى استمرأ تلك الصور، فلم تعد تؤثر فيه ولا تحرك فيه مشـاعر إنسـانية مفترضـة؟ بدلا من ذلك فقد حركت مشـــاعر حقد دفين تمثل في شـــماتة ظاهرة،

واستبشار لنصرة فريقه ضد الخصم الآخر، وطفحت هذه المشاعر على السطح في منشورات وسائل التواصل الاجتماعي الفيسبوك وتويتر وليكند إن.

هل كانت المجتمعات العربية جاثمة على هذا المخزون من الحقد الدفين والذي انفجر في سنوات الحرب؟

هل أخرجت هذه الأحداث المارد من قمقمه فراح يعربد في كل اتجاه؟

الكل يعرف القصة كاملة، ومن يظن أن القصة تبدأ من أحداث عام ٢٠١١م، فراح يحملها وزر كل ما يجري.

الذي يتعامل هكذا سيكون كمنْ يحكم على رواية من مجرد قراءة الفصل الأخير منها!

القصة تبدأ منذ عقود طويلة، من سنوات الأنظمة العربية التي جثمت على كرسي الحكم طيلة تلك العقود، وراكمت كل المشكلات الحياتية، حتى تمخضت تلك المشكلات انفجار ٢٠١١م!

لا أحد يستطيع أن يتجاهل هذا الأمر- مهما غالط نفسه- فإنه يدرك أن الركود السياسي الذي حل بالعالم العربي هو من أفرز ذاك الانفجار، أما الذين لا يعترفون بذلك فهم أحرار أن يؤمنوا بما شاءوا!

لكن لا يجب أن نتناسى أن الحاضر ما هو إلا وليد الماضي، ولا دخان بلا نار، والأفضل للطرفين المختلفين حول أحداث ٢٠١١م أن يتجاوزوا الأمر، بدلا من المهاترات حولها، لأن هذا التجاوز هو الذي يجعل الكل يفكر فيما يجري اليوم، وكيفية الخلاص من هذا النفق الذي دخلناه حيث لا بصيص ضوء فيه.

استعادة إنسانيتنا المفقودة، واستنكار الجرائم أيا كان مرتكبوها هو بداية الطريق لحل الكارثة التي حلت بنا جميعا، ومعرفة التاريخ الإنساني الذي يسجل أن الحرب لا تستمر إلى الأبد، وأن أطراف الصراع بإطالتهم لأتون هذه الحرب إنما يراكمون ضرائب المستقبل التي ستدفعها الشعوب أو منْ تبقى منها!

ضـرائب من كل نوع؛ لعل أسـوأها هي الأحقاد المتراكمة يوما بعد يوم، ناهيك عن التخلف – فوق التخلف الحاصـــل أصلا – عن ركب العالم المعاصر.

إن اســـتمرار هذه الحروب ينذر بتوســـعها لتشـــمل كل الأرض العربية بلا اسـتثناء، خصـوصـا في ظل السـياسـيين المغامرين من كل الأطراف!

إن خاتمة القصــة التي ســتصــير لائقة بنا أن نصـبح من مندثرات التاريخ، وصنوان الديناصورات في متاحف التاريخ الطبيعي!

أما هذا الوطن العربي (الكســـير)، فإنه ســـيصـــبح كما تصوّره الشاعر الكبير أحمد مطر، عندما قال:

"وطنٌ لم يبقِ من آثارهِ غيرُ جدارٍ خَرِبِ،

لم تزلْ لاصـــقةً فيه بقايا من نفاياتِ الشـــعاراتِ وروثِ الخطبِ،

عاش حزب الـــ...، يسقط الـــخـــا...، عـــا ئد و...، والموت للمغتصبِ،

وعلى الهامشِ سطرٌ،

أثرٌ ليسَ له اسمٌ،

إنما كان اسمهُ يوماً بلادُ العربِ!"

***

التعايش أو الانقراض

(١)

في ظل ما تجري اليوم من أحداث في الوطن العربي تطل الطائفية كمحرك رئيسي في كل هذه الأحداث ولو ظهرت الأحداث كخلافات سياسية لكن الطائفية ليست بعيدة عنها، وما أسوأها من كوارث أن يكون الاختلاف طائفياً، لأن الاختلاف السياسي ستحكمه دساتير وقوانين وخلافه، لكن الخلاف الطائفي ماذا تحكمه؟

لن تحكمه إلا أضغان متجذرة ورواسب الماضي المترسخة في الصدور.

في ظل هذا لا حل إلا بالتعايش، ولكن ما هو التعايش المطلوب؟

التعايش في اللغة على وزن مفاعلة مثل أفعال (تشارك - تقاتل - تعاون ...إلخ) الذي يقتضي أن يتشارك الفعل كلا الطرفين أو كل الأطراف - إن كانوا عدة - لأنه لا تعايش من

طرف واحد، فالتعايش مثل الحبل الممدود بين المتعايشين فلا يصح أن تمسك طائفة بطرف هذا الحبل في حين ترفض الطائفة الأخرى الإمساك بالطرف الآخر.

(٢)

فأنا لا يمكنني أن ألغيك وأنت لا يمكنك أن تلغني

فما الحل لنظل معاً؟!

التعايش

لكن انتظر!

التعايش لا يعني الذوبان، ولا يعني التماهي في الآخر ولا يعني أيضاً قبول هذا الآخر على علاته هكذا.

التعايش يعني أن نلتقي فيما يجمعنا وليترك كل واحد خصوصية الآخر له بدون إفراط أو تفريط.

(٣)

ا/ كيف أتعايش مع هذه الطائفة، إن آراءها متطرفة!

ب/ هذه وجهة نظرك أنت عنهم، ولا ريب أنهم أيضاً يرونك - من وجهة نظرهم- متطرفاً!

ا/ فما الحل لتخفيف هذا التطرف؟

ب/ لو تدابرنا وأعطى واحد ظهره للآخر لزاد التطرف أكثر

ولو حملنا السلاح ضد بعضنا لاتسعت الهوة أكثر

ألا نقترب كي نرى الصورة بوضوح؟!

ا/ اقتربت وجدت الصورة (بشعة) جدًا؛ إنهم يرون بقاءهم في زوالي وأنت تقول لي أتعايش؟!

ب/ هل يقدرون أن يستأصلوك تماما؟

ا/ لا

ب/ وأنت هل تستطيع أن تستأصلهم تماما؟

ا/ بالطبع، لا!

ب/ هل رأيت؟ لا بد أن تظلا الاثنان ـ شئتما أو أبيتما!

(٤)

الأوروبيون خاضوا خلال تاريخهم حروبا طاحنة، وفي الأخير لم يجدوا لبقائهم من حل سوى التعايش.

جاء في الويكيبيديا عن أوروبا:

"لكن غالبًا ما يسود الشعور بالكراهية وعدم الثقة بين المجموعات العرقية المتجاورة، وغالبًا ما يقود هذا الشعور إلى القتال بين المجموعات العرقية في القطر الواحد، أو بين المجموعات في الأقطار المتجاورة. ولقد حدثت بالفعل مثل هذه النزاعات في أوروبا في القرن العشرين الميلادي، بين الإنجليز، والأيرلنديون وكذلك بين الأيرلنديون الكاثوليك من أتباع الكنيسة الرومانية، والبروتستانتي...، وبين التشيكيين والسلوفاكيين في تشيكوسلوفاكيا السابقة.

لكن وبشكل عام بدأت معظم المجموعات العرقية الأوروبية تنسى تدريجيًا بمرور الزمن الاختلافات بينها، وبدأوا ينظرون لأنفسهم كأعضاء في مجموعة قومية واحدة كالدنماركيين، والإيطاليين. وفي أجزاء أخرى من أوروبا، ذهب البعض إلى أبعد من ذلك إذ بدأوا يفكرون في أنهم أوروبيون أولاً قبل أن يكونوا أفرادًا في مجموعة قومية بعينها".

(٥)

لا يهمني طائفتك

لا يهمني ديانتك

لا يهمني عِرقك

لا يهمني الحزب الذي تنتمي إليه

لا يهمني ما تحمله من تاريخ

لا يهمني ما تحمله من مؤهلات

لا يهمني ...

يهمني إنسانيتك

يهمني تعاملك اليوم معي

هذا هو المقياس.

(٦)

التعايش ليس تنظيراً وكلمات لبقة نكتبها على صفحات الفيسبوك أو الصحف، بل التعايش ثقافة يجب أن تشيع في المجتمع (مجتمعاتنا في الأوضاع الراهنة) وتتحول إلى سلوك.

باختصار التعايش حياة، بل استدامة للحياة.

فهل ترانا نستطيع؟

***

التعايش والإعلام

تخيلوا ماذا سيكون مدوناً في كتب التاريخ بعد ألف سنة عن المنطقة العربية؟

ماذا ستقرأ الأجيال القادمة عن الأحداث المعاصرة التي نعيشها اليوم؟

لا شك أنها ستقرأ عن فتنة طائفية عصفت بالمنطقة، أشعلها العرب بأيديهم في منطقة محصورة في الشام، ثم طارت الشرارة لتطال كل الدول بلا استثناء.

سيقول قائل: هذا علم غيب لا سبيل لك لمعرفته.

أقول صحيح، لكن الأحداث تجري أمامنا ولا تخفى على كل ذي عينين، وإلا فقولوا لي ماذا يجري في العراق؟

وماذا يجري في أرض سوريا؟

لماذا هذه الفتنة أطلت برأسها هكذا بكل وقاحة هذه الأيام؟

لأن العرب - بكل طوائفهم وفرقهم - ببســـاطة لا يعرفون ثقافة التعايش؟!

وأين هذا التعايش وســيل الفتاوى الســياســية - لا أقول الدينية لأن الدين لا علاقة له بما يجري ولو تعلق الجميع بـأســـتـاره- يكتســـح الإعلام اليوم مـا بين فتوى وفتوى (مضادة)؟!

والكل يتكلم وكأنه لوحده الناطق الرسمي باسم الإسلام؟!

حتى لم يرفعوا شعار المحلات التجارية (لسنا الوحيدين ولكننا الافضل)!

والإعلام شـــريك لصـــيق للفتاوى العابرة للقارات، وهو يروّج لها وكأنه يروّج لعلبة ببســـي أو كرتون عصـــير جديد خارج من المصـــنع، وليس لفتاوى تطير فيها رقاب وتهلك بعدها شعوب؟!

منذ سقوط بغداد عام ٢٠٠٣م وأنا أسمع (العرب السنة) في العراق، وهي عبارة لم نألف عليها من قبل، ولم نعرف هذا (المصـطلح) الإعلامي الجديدة إلا بعد السـقوط، ومن ثم توالت التصنيفات العرقية والطائفية وغيرها

وكأنني أسمع الشاعر أحمد مطر وهو يقول: -

إعلامُنا: إعدامُنا

يَركِلُنا

يَشتِمُنا

يَبصُقُ في وجوهِنا

وما بأيدينا سوى أنْ نَشكُر الإحسان

أليس شيئا رائعاً

أنْ يُصفَعَ المرءُ على قفاهُ بالألوان؟!

وأي صفع سيكون؟

فليتقِ الله إعلامنا العربي وهو يحمل شـــرارة الكارثة من بيت لبيت في زمان تعلّق الناس بالصورة وصدّقوا ما بها من دون تمحيص ولا فحص، هكذا – مباشـرة- من الشـاشـة إلى الدماغ دون أدنى (فلتر) لما يُذاع.

وكل الأطراف امتلك هذا الجهاز الخطير (الإعلام) من أجل تعريف الناس بالطريق المستقيم؟!

فالحمد لله على هكذا نعمة؟!

ودعوني أعود إلى أول المقال حيث سألتُ: ماذا ستقرأ الأجيال القادمة عن الأحداث المعاصرة التي نعيشها اليوم؟

لو ظل الوضع على ما هو عليه فلا أعتقد أن الأجيال القادمة ستقرأ شيئاً عن الأحداث المعاصرة التي نعيشها اليوم!

وذلك لسبب بسيط؛ أنه لن تكون هناك أجيال قادمة!

هذا رأيي، وأنتم ما رأيكم؟

أنتظر إجاباتكم

***

الثنائية الخطرة

في كل حوارات العرب ينصــدمون بجدارين أســاســيين دائمـا، وكـأنهمـا الحـدود التي لا يجوز تخطيهـا وهمـا: الـدين والسياسة.

هذه الثنائية الخطرة التي لا مناص منهما في كل مجتمع؛ تم صياغتها في شكل تساؤل: ما هي علاقة الدين بالدولة؟

تكمن أهمية هذا التســاؤل أن الإجابة عنه هي التي تحدد شكل المجتمع برمته.

لو راجعنا الأمر لوجدنا أن هذا التساؤل حديث نسبيا عند العرب؛ فـالعرب لم يعرفوا مـدلول كلمـة "دولـة" بمعنـاهـا الحـديث في لغتهم كمـا ذهـب إلى ذلـك الـدكتور محمـد عـابـد الجابري في كتابه (الدين والدولة وتطبيق الشريعة).

لكن التســاؤل فرض نفســه لما انصــدم العرب في أواخر القرن الثامن عشــر الميلادي بالمســتعمر الغربي الذي كان

لديه هذا الهم، فنقله إلينا لنجيب بدورنا إجابات متفاوتة فجّرت تساؤلات عديدة منها:

هل الإسلام دين ودولة؟

هل العلمانية هي فصل الدين عن الدولة أم هي فصل الدين عن السياسة فقط؟

وما هي علاقة الدين بالدولة أصلا؟

هل هو الفصل العلماني أم المزج الثيوقراطي؟

نُوقشت هذه القضية كثيراً، وللمفكرين على اختلاف مشاربهم آراء متعددة في ذلك.

لكن الذي أعجبني منها ما قاله الرئيس البوسني السابق علي عزت بيجوفيتش:

"إن الدين الخالص والسياسة الخالصة يوجدان فقط على مستوى الأفكار، أما في الحياة العملية فما نشاهده إنما هو مزيج من عناصر مؤلفة منهما معاً، وفي بعض الحالات يستحيل التفريق بينهما".

هذا يجعلنا أمام واحدة من اثنتين: أما الفقيه الذي يلبس حلة السياسي، أو السياسي الذي يلبس حلة الفقيه.

هذه الثنائية (الفقهية-السياسية) هي عصب الكوارث في مجتمعاتنا العربية الإسلامية منذ (الانقلاب) الأموي وحتى اليوم، فالانقلاب الأموي على الخلافة الراشدة- بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه عام ٤٠ هـ - هو الذي جعل من الفقيه (المتكأ) الديني الذي يترفّع عليه السياسي عن الرعية ويمسك بعصا الحكم ذات الصبغة الدينية.

فلو كان الخلاف بين الحاكم والرعية سياسياً لهان الأمر؛ لأن هذا الخلاف يدخل ضمن الاجتهاد الدنيوي الذي لا قداسة فيه، لكن تلبّسه بالديني جعل الخلاف ملتبِسًا على الرعية التي ترضخ لكل أمرٍ مرتبط بالسماء، وهذا هو مراد الطغاة في كل زمان.

ولو راجعنا تاريخنا لرأينا كيف استخدم الحكام السياسيون الفقهاء وآراءهم وفتاواهم (الحجة) في القضاء على مناوئيهم السياسيين بتهمة الزندقة أو الارتداد عن

الدين، وظهر هذا الأمر جلياً في العهد الأموي والعباسي وحتى العثماني، وإلى اليوم ما زلنا نتجرع آثاره.

إن الحلف الموجود بين السياسي والفقيه في ظل بُعد المثقف المتوازن جعل السياسي يستغل الدين كعصا لضرب هذا الأخير (المثقف) الذي يريد أن يخرج الناس إلى النور، ليصبح الناس في نهاية المطاف أمام سياسي متغلِّب بالقوة وفقيه مراوغ ومثقف مُبعَد أو مغيَّب.

والناس - بحسب رأي عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد – "ثلاثة أنواع: عوام ومستبدون وعلماء، والعوام يتأرجحون بين قطبي العلماء والمستبدين، فإن جهلوا خافوا، وإن خافوا استسلموا، والعلماء يعلمون، والعلم نور، والخوف جهالة وظلام، فإذا انتشر النور انقشع الظلام وانزاح الخوف".

***

العرب والدين والسياسة

العرب يتحدثون في السياسة والدين كثيراً، لكنهم على هذه الكثرة من الحديث لم يحسنوا لا في السياسة ولا في الدين!

كونهم لم يحسنوا في السياسة هذا أمر لا يحتاج إلى شرح؛ فنظرة في أحوالنا الحياتية المعاصرة تأتِيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوّد!

أما الدين، فإن حديث العرب عنه عجبٌ عجاب؛ فقد حولوه من "جامع" لهم إلى مفرّق ومشتت – وما جاءت الأديان بذلك، لكنها أهواء الناس منْ فعلت ذلك.

حتى أصبحوا طوائفا ومذاهبَ تتقاتل باسم الدين، وكلٌ يرى نفسه على حق والآخرين على خطأ عظيم!

وصار الدين – للأسف – هو البارود الذي تُشحن به مدافع كل فريق ضد الآخرين؛ فالكل متدرِّع بالآيات القرآنية

والأحاديث الشريفة يتلوها ويلوي أعناقها على هواه، ووفق مصلحته وانتصارا لطائفته وجماعته!

لذا اجتاحت (الحروب المقدسة) كل أرجاء الوطن العربي (الكسير)!

إنه حلف السياسة والدين الذي رفع رايته كأنه قراصنة العصور الوسطى التي اجتاحت بحار الحياة العربية المعاصرة، فارتدت الشعوب تقاتل تحت مسميات تم إحياءها من الرميم، فصارت تلك الشعوب (زومبيا) عائدا من غياهب الموت تقاتل من أجل ماذا؟

الواقع لا تدري!

المهم أن تقاتل تحت أي مسمى تقتنع به والسلام.

مسميات تم تغليفها باسم الدين لتلوح هالتها الدينية برّاقة تغري بالتضحية من أجلها!

وها هي الخريطة العربية مشتعلة من أقصى المشرق حتى أقاصي المغرب، اشتعالا مُفتتًا للجغرافيا، مُستحضرًا كل خلافات التاريخ القديم والوسيط والحديث.

كنتُ أقرأ عن هذا الخراب في كتيبات د مصـطفى محمود – الكاتب المعروف –السـياسـية التي صـدرت في تسـعينيات القرن العشرين، وها هي تتحقق عيانا اليوم!

كتيبـات (الغد المشـــتعِل) و(الطريق إلى جهنم) و(على حـافـة الزلزال) و(الإســـلام في خنـدق) و(على خط النـار) وغيرها، كلها كانت تتنبأ بهذا الأتون الذي نعيشـــه في هذه السنوات العجاف.

هذا هو الحديث الكثير في الســياســـة أو الدين ـ الذي لا يخلو منه أي مجلس عربي – حديث خطير، لأنه ليس مجرد حديث للهو أو اللغو، بل تعبئة وحشد نحو المحرقة للجميع.

ومن عجائب الأمور أنه لو تحدث أحدهم في أمور دينية، لرد عليه أكثر من واحد، وسفّه كلامه أكثر من واحد، ووافقه أيضـــا أكثر من واحد، لكن لو تحدث أحدهم في الفيزياء – مثلا- لصـــمت الكل أو تحدث المختص في الفيزياء، وحين تسألهم: لماذا لا تتداخلوا مع المتحدث؟

سيقولون: لا... هذا تخصص، يحتاج فيزيائي.

أها ...الفيزياء تريد متحدث متخصـــص، والدين لكل منْ هب ودب يخوض فيه؟!

ومثله السياسية!

ماذا يعني العيش في العالم العربي الكسير؟

لا غرابة من كل هذا؛ فالوطن العربي (الكسير) هو أرض اللغو والترهات التي تجتاحنا منذ زمن طويل.

بحيث لو تساءلنا:

ماذا يعني العيش في العالم العربي الكسير؟

فالإجابات أتخيلها على النحو التالي:

يعني العيش على أرض الزلازل والمتغيرات المفاجئة/ بلا ضابط ولا قانون.

يعني العيش في جو الثقافات التي تعترف بكل صاحب قوة، أيًا كان مصدرها!

يعني العيش في جو (المقدسات) المصنوعة بحسب أهواء السياسة منذ زمان الانقلاب الأموي وحتى الآن!

يعني أن تعيش، وأنت لا تعيش عيشة حقيقة مثل باقي عباد الله!!

وحتى المسميات التي تطرق سمعك وذهنك منذ وعيك بهذه الدنيا، ستجد مع مرور الوقت أنها مسميات لا وجود لها إلا على الورق وضمن التلقي!

من أمثال: الوطنية، والمواطنة المتساوية والتسامح والتعايش ...الى آخر ما كانوا يحشونا به في مادة التربية الوطنية!

هذه الظلال من المفاهيم لا وجود لها على واقع الحال!

حتى مسمى (عالَم)، مجرد إطار لكانتونات جغرافية متناثرة على الخريطة، كل واحدة تحذر الأخرى وتكيد لها؛

فلا تغرّك القبلات الدبلوماسية التي نراها أثناء (القمم) العربية التي هي الأخرى- أي القمم- مجرد (ثقوب سوداء) تبلع أي تحرك حقيقي في الشارع العربي!

أرض الموات هذي تاهت خطوط الطول والعرض في تحديدها، كما تاه تاريخها المليء بالخزعبلات والخرافات

والأساطير، لذا أنصحك إذا مررت بجوار تلك الأرض أن تقول:

سلامٌ عليكم ديار قومٍ تائهين، ولا عزاء للأغبياء!

وأخيرا:

يقول الشاعر الكبير أحمد مطر:

يا أرضنا يا مهبط الأنبياء

قد كان يكفي واحدٌ

لو لم نكن أغبياء!

***

اليمني المغترب في داره!

لا أظن الغربة إلا لازمة يمنية بامتياز!

اليمنيون مغتربون في كل أصقاع الدنيا؛ بحيث لو فتشتت كل خطوط الطول والعرض الجغرافية ستجد على كل خط يمنيين.

فقد جرّب المواطن اليمني الغربة منذ زمن سحيق، منذ زمن الهجرات الأولى في عهد التبع اليمني الأول (يعرب يمن) في مطلع الألف الخامس قبل الميلاد، من يومها لم تتوقف الغربة!

بل لقد صارت الغربة غربة بكل الأشكال؛ غربة حضارية وإنسانية ووو...إلخ.

اليوم في ظل هذه الظروف الحالكة أصبح بلدنا أشبه بمنتجع سياحي جميل مهجور!

وصارت الغربة هي أول هاجس يدور برأس المواطن اليمني في الداخل، المهم أن يجد فرصة لذلك.

وليس الأمر كُره للوطن أو الأرض، إنما كُره للظروف والأحوال المعيشية المتردية التي أصبحت لا تُطاق، في ظل سياسيين مغامرين لا يحسون ولا يشعرون بآلام المواطن البسيط!

ألم يقل الشاعر المصري/ أحمد محرم:

يا صَاحِبي: فِيمَ المُقَامُ عَلَى الأذَى؟ ... سِرْ فالْبِلاَدُ فَسِيحَةُ الآفاق؟!

فهل قدَرُ اليمنيين الغربة؟

أم إنهم يعشقون الغربة حتى صارت قدرهم المحتوم؟

الغريب في الأمر أن تجد اليمنيين الذين في الداخل يهنئون المزمع للغربة في يوم وداعه، بدل أن يشاطروه الألم لفراق الوطن!

وكأنه تم "الإفراج" عنه من سجين عتيد!

أنا شخصيا لا أحب الغربة، فقد جربتها عندما كنت طالبا في الدراسة الجامعية في العراق في منتصف تسعينيات

القرن الماضـــي؛ ســـت ســـنوات كاملة، رغم أني كنت أعود لليمن في عطلات آخر العام الدراسي.

لكن مع ازدياد حالات الاغتراب أحس أن (لعنة) الأجداد انتقلت إلينا عبر العصور منذ تهدم سد مأرب في القرن الثاني الميلادي وهجرة عمرو بن ميزيقيا المشـــهورة، كما عبّر عنها الشاعر اليمني الكبير د. عبد العزيز المقالح في قصيدته (رسالة إلى عمرو بن مزيقيا):

"تحيّرت..

ثارَ، تهشّمَ فوق الحروف القلمْ

إلى أينَ تكتبُ؟

أين مكانك يا "عمرو" بين الرّممْ؟

وأين الدّيارُ التي اخترتها موطنًا لك قبل انهيارِ الجدار

وقبل انفجارِ العرِمْ؟

وهل لك قبرٌ على الأرضِ؟ أم لفظتك الرّمال

لأنّك خنت التّرابَ

وخنت الرّجالَ

أخذت نصيبكَ منها غداةَ الرّحيل

غداةَ شربتَ دموعَ الضّحايا

تسلّمت أثمانَ كلّ النّخيل".

إلى أن يقول المقالح:

"لقد كنتَ يا "عمرو" لعنةَ أيامِنا الخاليةْ

وما زلت لعنةَ حاضرِنا

ثم أيامنا الآتية

إذا ما ارتحلنا ذكرناك أول الراحلين

وحين نَفرُّ من الليل أنت الدليل المهين".

بل صـــارت تُضــرب بنا الأمثال في التفرّق؛ فتقول العرب "تفرّقت أيدي سبأ"!

فقد خرج اليمنيون من أرضـــهم في ذلك الزمن القديم وكان الانتشار.

وهاهم الأحفاد يعيدون الكرّة.

تآمر الجغرافيا والتاريخ

اليمن كمنطقة جغرافية موضـــوعة في الزاوية الغربية الجنوبية من شــبة الجزيرة العربية، محاطة بالجبال من أكثر من منطقة، مما يجعلها بعيدة عن مناطق مؤثرة كثيرة.

يبدو أن هذا الانزواء الجغرافي ولّد في الشخصية اليمنية هذا الشـعور بالغربة، زيادة عن ذلك دور الأنظمة السـياسـية التي تعـاقبـت على حكم اليمن منـذ أن خرجـت من دائرة الحضــارة بُعَيْد الانقلاب الأموي على الخلافة الراشـدة؛ حيث عمل كل من ولاة الدولتين الأموية والعباســية على "تحييد" اليمن، بل قاموا بغمط مكانتها الحضارية!

واستمر هذا التهميش بعد ذلك.

وفي العصـــر الوســـيط انقســـم اليمن إلى عدة دويلات متصـــارعة لم تكن اســـتثناء من هذه الدويلات إلا الدولتين: الصـــليحيـة (١٠٤٧- ١١٣٨م) والرســـوليـة (١٢٢٩- ١٤٥٤م) اللتين قدمتا مشروعا حضاريا لهذا البلد ظلت آثاره باقية حتى اليوم.

ما عدا ذلك فقد ظل اليمنيون مغتربين منذ زمان طويل، كأنهم مغتربون ولو لم يغادروا أراضـــيهم، يصـــدق عليهم وصف عبد الله البردوني – شاعر اليمن الكبير:

بلادي في ديار الغير...أو في دارها لهفى

وحتى في أراضيها...تقاسي غربة المنفى

فهل بعد هذا اغتراب؟!

***

الوطن العربي الكسير!

مرت المنطقة العربية بأحداث كبرى خلال السنوات الخمس الماضية، ولعل أهمها ما جرى في عام ٢٠١١م بما عُرف باسم الربيع العربي.

وبغض النظر عن تسميتنا لها بهذا الاسم أو بأسماء أخرى – على حسب موقف كل جهة من الأحداث- ودعونا نسميها انتفاضات ٢٠١١م أو أحداث ٢٠١١م كحل وسط لما جرى؛ لأنه ليس المهم المسمى، لكن المهم ماذا أحدثت من أثر على المنطقة.

هذه الأحداث الجوهرية عصفت بالمنطقة جميعا سواء الدول التي خاضت التجربة – ولا تزال في المعمعة حتى الآن- أو الدول المتفرجة على الأحداث، وإن كانت لفظة (متفرجة) لا تنطبق عليها تماما، فهي مشاركة بشكل أو بآخر.

هذه الأحداث كشـــفت الكثير، وعرّتنا نحن كعرب أمام أنفسنا أولا، وعرّت العالم في الوقت نفسه؛ فاكتشفنا زيف الواقع الذي كنا نعيشه، وكذلك زيف العالم الذي من حولنا المتشدق بكل المسميات المزركشة التي يدلقونها علينا في كل حين.

أما عن أنفسنا؛ فقد وجدنا أن هذه الأنظمة السياسية التي ظلت تحكم هذه المنطقة الجغرافية لم تكن إلا إطاراً لكانتونات جغرافية متناثرة على الخريطة، قائمة على المحددات الثلاث التي حكمت العقل السياسي العربي في الماضي – بحسب د. محمد عابد الجابري- وهي القبيلة والغنيمة والعقيدة، ولا تزال تحكمه بصورة أو بأخرى في الحاضر، والنتيجة احباطات ونكسات فتحت الباب لعودة المكبوت، وهكذا عادت العشائرية والطائفية والتطرف الديني والعقائدي لتسود الساحة العربية بصورة لم يتوقعها أحد من قبل، لقد عاد المكبوت ليجعل حاضرنا مشابها لماضينا، فأصبحت القبيلة

محركا للســياســـة، والريع جوهر الاقتصـــاد، والعقيدة دافعا للفعل وتبريرا للقمع.

هذه الكانتونات كل واحدة تحذر الأخرى وتكيد لها، فلا تغرنا القبلات الدبلوماســـية التي نراها أثناء (القمم) العربية التي هي الأخرى- أي القمم- مجرد (ثقوب ســـوداء) تبلع كل تحرك حقيقي في الشارع العربي!!

فخلصـــنا إلى أننا نعيش في أرض الموات المســـماة خطأً الوطن العربي الكبير، لكنـــه في الواقع (الوطن العربي الكسير)!

جغرافية تاهت خطوط الطول والعرض في تحديدها، كما تاه تاريخها المليء بالخزعبلات والخرافات والأســـاطير التي تخرج من كهوفها في أي لحظة (تاريخية) يتم استدعائها فيه من قبل المنظومة السياسية.

وبدا لنا أن المسـميات التي طرقت أسـماعنا وأذهاننا منذ وعينا بهذه الدنيا، مجرد مسميات لا وجود لها إلا على الورق وضمن التلقي!

من أمثال: الوطنية، والمواطنة المتساوية والتسامح ووووو ...الى آخر ما كانوا يحشونا به في مادة التربية الوطنية!

هذه الظلال من المفاهيم لا وجود لها على واقع الحال!

أما جمهرة النخبة - وهم الصفوة من مثقفينا الذين كنا نعقد عليهم الأمل في قيادة الجماهير بجمعها الغفير على طريق التنوير الذي تبشر به دائما في كل أطروحاتها- فقد وجدنا من هؤلاء النخبة منْ أنحاز مع منْ كانوا يناهضونهم في كل أطروحاتهم في موقف أكثر ميلو درامية!

هذه النخب التي باعت الأحلام للجماهير البسيطة، تلك الجماهير التي كانت تراهم في مندياتهم الثقافية يتفوهون بالألفاظ المقعرّة التي توحي عن (عمق) فكري!

فكان البسطاء - أمثالي- ينظرون إلى هؤلاء المختفين خلف عدسات نظاراتهم اللامعة وبدلاتهم المكوية وأربطة العنق الصارخة الألوان و(رطانة) لغتهم الإنجليزية أو الفرنسية الهجينة مع اللكنة العربية، ننظر إليهم في استغراب

من أين جاء هؤلاء؟ وهم ينثرون علينا الأفكار التي يبشرون بها عن التنوير والحرية و...إلخ،

حتى إذا ما حانت الســـاعة الحقيقة للاختبار لم نرَ منهم عليها أحداً!

فكان من الجماهير العربية لمّا رأت أن ما يسمى بالنخب الثقافية هائمة في عوالم الماوراء في تســاؤلاتها الفلســفية حول الروح والنفس وغيرها، هذه الجماهير المغلوبة على أمرها لمّا رأت ذلك أدارت ظهرها لهذه النخب وذهبت للساحات، فكانت انتفاضات شعوب وليس انتفاضات نخب.

بل قامت بعض تلك النخب بالتشكيك بما جرى وعرضه أنه مؤامرة خارجية، مما حدا بالمفكرين العرب الذين فندوا وحللوا ما جرى للتذكير أن الوضـــع كان مهيأ للانفجار بأي شكل من الأشكال؛ يقول هاشم صالح في كتابه (الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ): "بمؤامرة أو من دون مؤامرة، كان الوضع ينتظر شرارة فقط لكي ينفجر".

ويذكر د. عبد الإله بلقزيز في كتابه (ثورات وخيبات: في التغيير الذي لم يكتمل) عن هذه الانتفاضات: "إنما ولدت من رحم ظروفها الاجتماعية ولم تنشـــأ من أمر آمر، فتنزل على مجتمعاتها بعملية إسقاط مظلي".

مع أنه لا ينفي التدخل الخارجي بعد انطلاق الشـــرارة الأولى للأحداث وتسييرها لمصلحته الخاصة!

ماذا عن الغرب؟

نحن كشـــرق رغم تعاملنا مع الغرب طيلة هذه الفترة الطويلة – أقصد خلال العصر الحديث – إلا أننا يبدو لم نفهم الغرب تماما!

الغرب ليس ضدنا وليس معنا في الوقت نفسه!

الغرب مع مصـــالحه في براجماتية واضـــحة، لذا تتقلب مواقفه معنا – من صديق إلى عدو كما يبدو لنا – حسب تلك المصـالح، وهذه ليسـت مشـكلته، بل مشـكاتنا نحن الذين لم نفهم بعد!

نحن الواقعين في شَرَك نظرية المؤامرة – أما مضخمين لها زيادة عن اللزوم، أو نافين لها بالمرة!

وهي في حقيقة الأمر رعاية المصـــالح في ميكافيلية مطلقة.

يقول د. عبد الإله بلقزيز في كتابه الســـابق الذكر: "المصـــلحة: قيمة القيم في أخلاق الغرب الحديث، وديانته الرأسمالية".

لذا رأينا تقلّب التصريحات السياسية الغربية أمام أحداث ٢٠١١م واضحا – طبعا حسب بوصلة مصالحهم- أما حكاية الديمقراطية وحقوق الإنســان و...الخ، فمجرد مســميات لا تختلف عن مسميات امتهناها نحن هنا في الشرق كالوطنية والتعايش وغيرها.

إن أحداث ٢٠١١م – أو الربيع العربي – فضـــحت الكل بلا استثناء، يقول د. عبد الإله بلقزيز: "لكن الذين فضحتهم الثورة لم يكونوا جميعاً من أركان النظام في الداخل (التونسي والمصـري)، كان منهم من هم في الخارج، وإن كان نفوذهم في الداخل شـــديداً، وهؤلاء هم قادة دول الغرب، الأوروبي

والأمريكي، الذين أنزلوا أنفسهم طويلاً وأنزلتهم وسائل الدعاية والإعلام منزلة حراس قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، والمدافعة عنها في وجه الاستبداد والفساد والطغيان. فلقد ظل هؤلاء يحيطون الأنظمة البائدة بالرعاية والحماية مع علمهم باستبدادها وفسادها وفقدانها الشرعية الشعبية، ولم يتحللوا منها إلا في الهزيع الأخير من حياتها، بعد أن تبين لهم أن فرص صمودها أمام الثورة ضئيلة، بل مستحيلة".

حتى مسمى الربيع كان مغايرا للواقع؛ فالأحداث جرت أغلبها في الفترة من ديسمبر ٢٠١٠م وحتى مارس ٢٠١١م، وهي الفترة التي توافق فصل الشتاء بالنسبة للمنطقة العربية!

وما آلت إليه الأحداث من تناقضات وتعقيدات أكثر مما كانت عليه، إنما كان امتدادا لحالة الخواء التي كانت تعيشه منطقة الوطن العربي الكسير، فزيف المسمات التي كنا نعيش في كنفها على كل الأصعدة، تراكم ككرة الثلج خلال تدحرجها

كل تلك العقود، فما كانت نتيجة ســـتؤول أحســـن مما نحن نعيش أتونه حاليا – على مرارته!

وهكذا وجدنا أنفســـنا وجها لوجه مع الحقيقة العارية، حقيقة واقعنا المُعاش، يقول الكاتب اليمني عصـــام القيســـي: "لم يكن ربيعا عربيا، بل خريفا تســـاقطت معه كل أوراق التوت التي ســـترت عوراتهم، ابتداء من المشـــاريع المحلية الصغيرة وانتهاء بالمشاريع الخارجية للدول الاستعمارية.

الجميع الآن يقف عارياً كما خلقته أطماعه".

***

الأيام وإماطة اللثام

منذ عام ٢٠١٥م والأيام كالحة بوجه اليمنيين بسبب هذه الحرب التي لا تزال رحاها دائرة حتى لحظة كتابة هذه السطور.

أيام متخمة بالكوارث التي نسمع بها كل يوم، بل وتلك التي نعايشها كل يوم في كل دقائق حياتنا.

أقول حياتنا التي لم تعد إلا مجازا مقارنة بمسمى (حياة) على حقيقتها!

فأي حياة تلك التي تكون مقوماتها رَجْع الطلقات وهول الموت المحلّق فوق الرؤوس وغيب المستقبل المجهول؟

إنها لا تملك من لفظة (الحياة) إلا ما نغالط به أنفسنا أننا لا نزال على ما يرام!

لكن على قدر سوء هذه الأيام، فلها وجه حسن ما كنا لندركه لولا كارثة الحرب!

فإن هذه الأيام الكالحة قد أماطت اللثام عن الناس؛ فعرّتهم وأخرجت ما في القلوب من ضغائن، وأبدتْ من الذيات ـ قبل الأفعال ـ ما تنفطر لها السماوات وتهد لها الجبال هدا.

ساعد على ذلك وجود وسائل التواصل الاجتماعي في هذا العصر (الفيسبوك وتويتر وووالخ) التي جعلت كل واحد منا (شهيدا) على نفسه، وعلى مكنون صدره، يبوح بذلك ـ دون ضغط ولا اضطرار ـ بقلمه، أو بالأصح بلوحة مفاتيحه على حائطه الشخصي.

فهذه تياراتنا السياسية – على سبيل المثال ـ تزايد في العلن على بعضها البعض باسم الوطنية، لكن الشاعر الرصافي قالها كلمة صدق:

لا يَخدعَنكَ هُتاف القومِ بالوَطَنِ

القومُ في السرَّ غيرُ القومِ في العلنِ

فلله درّها من أيام!

رغم أنها أيام نحِسات لكنها من جانب آخر كاشفة لما في الصدور، وفاضحة لتركيبة مجتمعنا اليمني المتدثرة بالشعارات البرّاقة التي أطلقها الجميع؛ فجاءت هذه الأيام لتسحب الأغطية عن أصنامنا المعتّقة، فبان عيبها، وجلا زورها، فتبيّن منْ بكى ممنْ تباكى!

إنه زمان التمحيص، الذي يمتاز فيه كل حي، وقد انقسم الناس بين أطرافها ـ في أتون الحرب القائمة- مثل ضرب القمار؛ إمّا لهذا وإمّا لذا!

تحركهم المصلحة الآنية التي لم تراعِ وطنا ولا شعبا ولا ذمة، المهم أن يفوز كل طرف ومطبلوه بالمكسب السريع، وليذهب الآخرون إلى الجحيم، دون أن يعرفوا أن الجحيم هو (سقر) المصالح التي تحركهم جميعا، بل وتحرقهم جميعا.

أما سمعوا مولانا عبد الله البردوني يقول:

الأرضُ نفسِ الأرضِ لكنّ الجحيمَ الآخرون؟

لا أظنهم سمعوا، ولو سمعوا لما وعوا؛ لأنهم لو كانوا يعون، ما كان هذا حالنا، ولا وصلنا إلى هذه (الورطة) التاريخية، ويا لها من ورطة!

***

لعبة الحرب

عندما دخلت الحرب حياتنا أصبحت كلماتنا حربا، وتفكيرنا حربا، حتى خلافاتنا صارت حروبا صغيرة.

أما أطفالنا فقد استبدلوا المسدسات الخشبية والمائية والحقيقية مكان الأوراق، وصارت الألعاب النارية ألعابا حربية!

لن تجد شيئًا أو شخصًا حافظ على توازنه في زمن الحرب؛ لأن الحرب إذا دخلت الحياة أفسدتها، قلبت كيانها، جعلتها شيئًا آخر غير ما كانت.

إنها تقويض سريع لكل مكتسبات الإنسان التي صنعاها في زمن طويل؛ فهي ليست لعبة، بل مغامرة غير محسوبة العواقب – خصوصًا عند العرب- الذين يدخلونها بعنتريات الجاهلية التي ما تزال سابحة في جيناتهم!

رغم أن الحرب – كما يقول المؤرخ الأميركي المشهور وليم ديورانت المتوفى عام ١٩٨١م في كتابه (دروس

التاريخ): "أحد ثوابت التاريخ؛ فالحرب أو المنافسة هي أبو كل شيء، وهي الأصل الفعال للأفكار والمخترعات والمؤسسات والدول، أما السلام فهو توازن غير مستقر.

وأسباب الحرب هي ذاتها أسباب المنافسة بين الأفراد: نزعة التملك والمشاكسة والغرور".

وفي إحصائه للحروب التي وقعت في التاريخ البشري منذ تدوينه لم يجد من ٣٤٢١ سنة سوى ٢٦٨ سنة ليس فيها حروب، وأكثر من ثلاثة آلاف سنة كلها حروب؛ يعني قرابة من ٩٢% من تاريخ الإنسانية حروب!

رغم هذا فأني لا أرى في هذه الإحصائيات – بغض النظر عن دقتها- حجة لقيام الحروب.

فمنْ ذا يغامر بمستقبل أمة لخوض الحرب؟

أعلم أن المغامرين كُثر في زمان الجنون الذي نعيشه، لكن تجارب التاريخ تعرض لنا ما آلت إليه الشعوب التي أسلمت زمامها لهؤلاء المغامرين!

لكن منْ يقرأ التاريخ؟

العرب والحرب

الحرب هي إفلاس البشـــر في التفاهم معا، والعرب هي أمة الإفلاس في هذا الزمان، فهم في مرتع الحروب منذ حرب (البســـوس) و(داحس والغبراء) وحتى حرب اليمن الراهنة، يعني لا جديد، اللهم تطور آلات الصراع وتغير المسميات!

ولا يخرجون من حرب إلا ليصـــنعوا أختها بدس بذورها في كل اتفاق سلام يُصاغ!

يقول قائل: هل نســـيت أن الغرب متآمر عليهم، فهو من يصنع لهم هذه الحروب؟

طبعًا، الكل متآمر علينا حتى سكان مجرة أندروميدا!

أقول قد تكون المؤامرة موجودة لكن تضـــخيمها جدا وكأننا ملائكة أمر غير منطقي.

ولا ننســـى أن الغرب أناس يبحثون عن مصـــالحهم، لكن ماذا عنا؟

إن أغلب شـــعوب العالم من حولنا خاضـــت حروبًا، لكن العقلاء منها يتعلمون من هذه الحروب كيف يصنعون عالَمهم وكيف يجنبون شـعوبهم شـبح الحرب – ما اسـتطاعوا لذاك سـبيلا- لأن أعظم مشـكلة في الحرب، أنها تنزع منك حرية الاختيار، ومتى فقد الشعوب هذه الحرية انساقت مثل السائمة للمحرقة.

يقول الروائي الألمـاني هيرمـان هيســـه (١٨٧٧ - ١٩٦٢م) - الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦م -: "وهذه الحرب العالمية البائســة [يقصــد الحرب العالمية الأولى] بالذات يجب أن تجعلنا أشد وعيًا بأن الحب أسمى من الكراهية، والفهم أسـمى من الغضـب، والسـلام أسـمى من الحرب، وإلا فما جدواها؟"

نعم؛ السلام أسمى من الحرب.

***

أحاديث في زمن الحرب

مارس/آذار

شهر ولا ككل الشهور؛ لأنه شهر الربيع.

لكن شـــهر الربيع هذا لم يكن ربيعا على هذه الجغرافية المسماة اليمن؛ ففي السادس والعشرين منه عام ٢٠١٥م – أي قبل أكثر من ثلاث سنوات – انطلقت عاصفة الحزم، تلك العاصـــفة التي ما تزال مزمجرة حتى اللحظة؛ فما تزال طائرات التحالف العربي تمطر المدن اليمنية بالصـــواريخ، ومن ناحيتها ما تزال مدافع الأرض تواصل عملها هي أيضا على الأرض اليمنية.

ثلاث ســنوات مرت منذ بداية الحرب، وما يزال المواطن اليمني في هذا الأتون الذي وضــعه فيه الســياســيون – بكل أصــنافهم المتعددة- ســواء بحرب مباشــرة أو بالوكالة – لا فرق!

القصـــف والحرب والقتل والتهجير والتفجير هذه هي المصـــطلحات المتداولة على الســـاحة اليمنية الواقعية أو الافتراضية، وتم إضافة كارثة جديدة (وكأن الكوارث السابقة لم تكفِ)!

هي انقطاع الرواتب، مما أفرز المهاترات العابرة للقارات بين حكومتي الداخل والخارج؛ كل واحدة تحمّل الأخرى مســـؤولية انقطاع الراتب، هذه المهاترات جعلت المواطن العادي ككرة متداولة بين حكومة الداخل والخارج، بما يذكرنا بقول الشاعر الكبير أحمد مطر:

"أنت كُرةْ

إن فلتتْ من تحت رجل (عنترةْ)

تنطَّطتْ بين يدي (شيبُوبْ)"!

وإلى اللحظة ما يزال الشعب (يتنطط)!

الأسئلة التي تلوح: ماذا بعد؟

إلى أين ستجرفنا هذه الحرب؟

ماذا يريد السياسيون؟

هذا إن كانوا يعرفون أصلا ماذا يريدون!

أغلب الظن أنهم لم يعد يدركون ذلك، بل صـــاروا دمى تحركها شــهوة الانتقام والانتقام المضــاد، وكل طرف يتعامل مع الحرب على طريقــة " قـد بـدا الوجــه"، في مقـامرة ممجوجة، ومغامرة بمســتقبل شــعب بأكمله، دون حســاب للعواقب المترتبة على هذه الحرب، تلك العواقب التي تزداد قتامة ووخامة باستمرار اشتعال هذا الأتون.

استمرار الحرب منْ يستفيد منه؟

أكيـد هم تجـار الحروب الـذين يظهرون في كـل زمـان ومكان، لا يهمهم أي طرف من الأطراف السـياسـية ينتصـر، المهم أن يستمر دوران عجلة الحرب لتستمر تجارة الموت، وجني الأرباح من وراء ذلك!

إن هذا التاجر من هذه النوعية هو (صـــديق الرياح) – كما سماه مولانا البردوني - ووصفه قائلا:

"على اسم الجنيهات، والأسلحة

يتاجر بالموت، كي يربحه

ويشتم كفّي مرابي الحروب

فيزرع في رمله مطمحه

وغاياته أن يديرَ الحروب

ويبتزَّ أسواقها المربحة

وما دام فيه بقايا دمٍ

فمن صالحِ الجيب أن يسفحَهْ

يجودُ بأشلائه ولتكنْ

(لإبليس) أو (آدم) المصلحة".

فهو مع الكل على الكل، لأجل مصالحه فقط!

وهناك تجار من نوع آخر؛ إنهم تجار الرؤوس!

يحدثنا د مصطفى محمود - في أحد كتبه -عن تجار الرؤوس أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، فيقول: " تاجر رؤوس في الحرب الأهلية اللبنانية عنده عصابة من القناصة تقتل المارة في الشوارع من على رؤوس العمارات لحساب هذه الطائفة أو تلك، وفي النهاية يقبض الثمن بالدولار".

منْ يستغربون من هذا الكلام، أقول أنا لا أستغرب أبدا؛ فالحرب تفرز أسوأ أنواع التجارة، وأقذر النفسيات الإنسانية، لأن الشعوب تتعرى في زمن الحروب، فتظهر العورات!

أليست الحرب هي أحلك بقعة في تاريخ البشرية، كما يقول الفيلسوف الهندي برابهات ساركار؟!

هذه الظلمات تفرمنها الشعوب العاقلة ولا تلجأ لها إلا للضرورة القصوى، لأنها تعلم أن الحرب تنزع منها حرية الاختيار!

من يوميات الحرب

كل يوم نلتقي في (مجلس) الفيسبوك مثل (موالعة) قدامى، ندلق أحزاننا البائتة، ونستعرض خسائرنا الفادحة، وكأننا تجار نقوم بعملية جرد يومية؛ كم أصبح حجم جبل الحزن الذي نبت في أعماقنا؟

كل يوم نردد أخبار الغارات والغزوات؛ غارات من السماء، وغزوات من الأرض، والضحايا يمنيون؛ لا يموت إلا اليمنيون، لماذا لا يموت سواهم؟

هل الموت احتكار يمني؟

كل يوم تتحطم ركيزة من ركائز هذا البلد، بلد هش، لكن الحرب زادته هشاشية.

ليست الحرب نزهة ولا مغامرة صبيانية لشلة مغامرين، بقدر ما هي اجتثاث لمجتمع بأكمله.

اليمنيون سيخرجون من هذا الحرب بصورة غير!

البيت القديم الهش الأركان يتداعى، ونحن ما نزال مشغولين بالخلاف على منْ يرث الأبواب الصدئة، أو من يجلس على كرسي الغرفة الرئيسية فيه!

مختلفين على منْ يجعل المفتاح القديم في جيبه، أنا أم أنت؟!

الضباب لف البيت القديم وانعدمت الرؤية، وما يزال صوت المدافع يرافق التكبيرات عند كل فرض، هل من الضروري أن نكون مسلمين على ضربات المدافع؟

(إلى أين يا آخر التجربة ... إلى أين هذا بذاك اشتبه)

هكذا قال مبصر هذه الأرض، لكن عميانها أصرّوا على مواصلة الزحف داخل النفق!

إننا - يا د. أحمد خالد توفيق – ما نزال (في ممر الفئران) حتى اليوم، و(القمندان) ما يزال فوق الهملايا ينعم بالضوء لوحده!

إنه غير (قمندان) الطرب اللحجي؛ إنه (قمندان) من طراز هذا الزمان القبيح!

ورطة تاريخية

منْ يخرجنا من هذا المأزق؟

والله إنه مأزق المآزق، و(ورطة) تاريخية؛ ليست الحرب فقط، بقدر الانقسام الداخلي الذي صنع هذا التبلّد الذي عمَّ البلد.

لقد صرنا خارج الزمان والمكان والتاريخ، أي كارثة تلك؟

منْ ينتظر الخلاص بيد (مريم) على ارتفاع عشرات الكيلومترات فوق عنان السماء، لا يقل إجراما ممن ينتظر الخلاص بفوهات مدافع تقتل الأبرياء على الأرض، لأن القتل إجرام يستوي منْ يمارسه، سواء كان محلي الصنع أم مستورد!

من مهازل هذا الزمان أنه أصبح على اليمني اليوم أن يختار قاتله!

متى نتوقف عن هذا الاختيار الوجودي السمج الذي يلغي الوجود كلية؟

اتركوا للناس فسحة من أمل، لا تغلقوا كل الأبواب.

بعد قرابة الثلاث سنوات لم أعد أدري ماذا يريد التحالف العربي وهو يمشط سماواتنا طيلة هذي الفترة؟

أي قبح هذا وأنت تمخر بطائراتك في مساء كل ليلة، وشاشات الرادار أمامك لا تكاد تلتقط مضاد طيران واحد يقصف عليك، ولا تلتقط أضواء حقيقية لمدن، بل تكاد تضيئها أنت بلهب صواريخك القاتلة!

ماذا يريد التحالف؟

هل يريد أن يقضي على الحوثي - كما يزعم؟

لكنه قضى على الحلم اليمني.

أعود وأسال ثانية، ماذا يريد السياسيون لدينا سواء الذين بالداخل أم الخارج؟

الناس ملّوا والسياسيون ما ملّوا،

التخبط عم الكل، وأزعم أنه لم يعد أحد يدري ماذا يريد!

لكني أريد بلدا آمنا أحيا فيه، لي طموحات وآمال أريد تحقيقها وأصبو لبلوغها، ومثلي ٢٥ مليون نسمة على هذه الأرض.

هذه بلدي وجذوري فيها تمتد مئات السنوات، فلن تنْبت لأهواء سياسيين متخبطين، لا يمثلون هذا البلد ولا حضارته!

بل هم أقرب لسحابة جَهام – أي فارغة- أرادت أن تزاحم سحب الصيف المثقلة بالمطر في شهر آب المبارك، لكن شتان بين المعصرات والجَهام!

***

أغاني الأعراس واللُحْمَة الوطنية

السيارة تتهادى على وقع تضاريس الطريق الجبلية التي نسير عليها،

لم تكن سيارة واحدة، بل ست سيارات تلاحق بعضها بعضا في بداية عتمة الليل،

الغمازات تتناغم على وتيرة واحدة، والكشافات الأمامية تبين الطريق التي نسير عليها، فالقرى المجاورة تبعث أضواء باهتة، تلك الأضواء التي توفرها الألواح الشمسية بقدر المستطاع خصوصا مع تكاثف الغيوم طيلة اليوم، ولا ننسى أننا في شهر يوليو/ تموز واحد من شهور الصيف حيث تغزر الأمطار في (إب).

كنا موكب (الشَوَاعَة) – وهم الذين يرسلهم العريس لإحضار عروسه من بيت أبيها، وعادة ما يكونون من الأقارب وبعض الجيران.

ولا يحتاج المشـــاهد لكثير من التفكير ليعرف أن هذا موكب عرس، فسيره المتهادي وغمازات السيارات المترددة ينطق بذلك!

وكذلك تتعالى من الســـيارات أصـــوات الأغاني، أغاني العرس، وهي ما يستحق أن نتوقف عندها.

الأغنية/ النشيد في الأعراس

يكثر الخلط بين الأغنية والأنشـودة، فالفارق ليس كبيرا؛ فمجرد خلو الكلمات من آلات الطرب يجعلها أنشودة والعكس بالعكس، وبذا ترى كثيرا من الأناشـيد صـارت أغاني وأغاني – جُردت من المعازف- صارت أناشيد!

لن نطيل الوقف عند هذه النقطة، سنسميها كلها أغاني..

التنوع في النسـيج الاجتماعي اليمني انعكس على أغاني العرس لدينا؛ فاليمن كانت ملتقى الأديان الســـماوية الثلاثة: اليهودية والمســـيحية والإســـلام، وكذلك وجود مذاهب ثلاثة

إسلامية لدينا: الشافعية والزيدية والإسماعيلية، ناهيك عن التنوع الجغرافي واللهجات.

فتسمع في العرس أغنية تقول:

(بسم الله

في أول العرس نبدأ

بالمولى ...الله يا الله

وبالرسول المشفَّع

يا فتاح ...الله يا الله

افتح لنا سيدي بابك

واجعلنا يا رب من جملة أحبابك)

هذا موشح كانت تنشده جمعية المنشدين اليمنيين زمان بدون موسيقى، اليوم صار أغنية مع بعض التحريف للألفاظ

فقد كان:

في أول الذكر نَبْدَعْ

نَبْدَعْ: نبدأ

صار:

في أول العرس نبدأ

مع احتفاظه بإيقاعه القديم.

طبعا هذه الأغنية ستكون محصورة على اليمنيين المسلمين.

لكن تعال إلى أغنية ثانية تقول كلماتها:

(اشتي حَرِيْوَةْ حالية من بنات اليمن

أدعي لربي واقول لمن حياتي وقلبي لمَنْ

بنت اليمن مَحْلاش حِنْ بَديْتِي

قد زَلّتْ الساعة ولا دريتي

بنت اليمن يا غصن بين الاغصان

يا خل يا وردة بوسط بستان)

حَرِيْوَةْ تعني عروسة أو العروس، مثلما حَرِيْوَ يعني العريس!

محلاش: ما احلاك

حِنْ: عندما

بَديْتِي: ظهرتِ

زَلّتْ: راحت

هذه الأغنية من التراث اليمني اليهودي!

ويمكنك أن تسمعها بصوت الفنان زيون جولان، من هذا الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=B09VJliBHg4

طبعا الكل يترنم بها، وليست مخصوصة باليهود اليمنيين فقط!

ومثلها أغنية (يا هزلّي) التي غناها الفنان أحمد فتحي، لكن بكلمات أخرى مع بقاء نفس إيقاع الأغنية اليهودية الأصلية.

وهناك أغنية الزفة نقول كلماتها:

(مرحباً.. يا نور عَيني؛ مرحَبا

مرحباً.. جدَّ الحُسينِ.. مرحَبا

"يا "حَرِيْو" الله يسرّكْ، مرحَبا

وأدامَ الله سُرورك.. مرحَبا

مرحباً مَرْحَباً ببدر التَّمامِ

يا هلالاً.. بَدَا بجُنح الظلامِ)

يمكنك سماعها من هذا الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=wQbSc7SEgas&list=PLDYwtkt5GQ34On2QP214fvZvZf0bhTyFP&index=3

أو أغنية ثانية تقول كلماتها:

(أزكى صلاة الله تغشى الرسول

ثم الوصي وابنيهما والبتول

يا بدر هذا العُرْس نلت المنى

حسنك بديع أبهر جميع العقول)

يمكنك سماعها من هذا الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=4rjS5vVbTmU&feature=related

هنا تلتقط النفَس الشيعي واضحا في كلمات (الحسين) و(الوصي) وغيرها.

ولا غرابة فالمذهب الزيدي واحد من أهم المذاهب في بلادنا، ومع ذلك فهذه الأغنية ليست محصورة على الزيود اليمنيين وحدهم، بل يرددها الجميع.

مع أيوب طارش

هناك أغنية عرس مشـهورة ارتبطت بالفنان الكبير أيوب طارش

هذا الفنان الذي غنّى لليمن أرضــا وأنســانا، فلمَ لا يغني للعرس؟!

تقول كلماتها:

(رشوا عطور الكاذية

على العروس الغالية

وعوَّذوها بالنبي

وادعوا لها بالعافية

يكفي عريسك يا عروس

هذي العيون الساجية

يا ليلة العمر الهني

طولي بفرحه هانية

خلّي العروسة والعريس

فوق النجوم السارية)

يمكنك سماعها من هذا الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=Lz0M3I-dZMA

ورغم أن الجو جو أعراس، إلا أن الفنان الكبير لا ينسى الأرض فيضمنها في أغنية له أخرى عن العرس تقول كلماتها:

(يا صباح الرضا على مشارف بلادي

الشيوخ والشباب حتى الذي بالمزابي

يا بكور افرحين وزينين البوادي

زَغْرِدَينْ، وارْقصيَنْ على وصول الجرابي

والشباب الشباب، الأسُد أهل الأيادي

بالسيوف البَرَع والشَرْح يشتي جنابي)

المزابي: الأطفال الرضّع

الجرابي: جمع جِرْبـة وهي الارض التي تزرع، واللفظـة بمعنى الحقل

البَرَع والشَرْح: نوع من الرقص

الجنابي: الخنجر اليمني

يمكنك سماعها من هذا الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=8frNbLnXzf0

هذه الأغاني ليســـت محصـــورة على مدينة تعز – بلد الفنان- بل تترنم بها اليمن قاطبة.

وهكـذا تظـل أغـاني الأعراس اليمنيـة – على تنوعهـا- معبرة عن التنوع الخلاق لهـذه الأرض، فلقـد جمعتنـا هـذه الأغاني بقدر ما فرقتنا السياسة!

هل وصلنا إلى بيت العريس؟

نعم فها هي الألعاب النارية والرصاص الحي – للأسف- تملأ الفضاء في أصوات صاخبة ممتزجة بأصوات الزغاريد المنطلقة من حناجر النســـاء المنتظرات في غرفة (القبض) حيث سيجلس العريس وعروسه على الكوشة!

فألف مبروك لكل عريس وعروسة.

***

اليمني المقهور

أنا اليمني المقهور في الداخل والخارج.

أنا اليمني الذي يحمل إرثا أثقل من حجمي، طويلا ثقيلا لا أطيق به حراكا!

أنا الذي يشـــرح لي تاريخي (الهمداني) و(نشـــوان) و(الإرياني) و(الفرِح).

أنا الذي وُســـمتْ أن الحكمة يمانية والفقه يمان، فكان (الشوكاني) و(المَقْبَلي) و(الجلال)!

أنا أشــكو منذ غنائية (عبد يغوث الحارثي) وحتى مولانا البردّوني، مرورا بـــــــ(بكر بن مرداس) و(وضـــاح اليمن) و(يزيد بن مُفَرِّغ الحميري) وغيرهم.

أنا أنا بآفاقي وأخيلتي، بل بحزني ومأســاتي التي أحملها على ظهري طيلة هذه القرون الطويلة منذ الانقلاب الأموي على الخلافة الراشدة، بل منذ سقيفة بني ساعدة التي سلبت اليمنيين حقهم، ومع ذلك ظلوا أوفياء للدعوة المحمدية التي

تخلى عنها الآخرون وتاجروا بها، ومن أجلها ذبحوا بعضهم بعضا، وبقيت أنا اليمني الحزين أحمل الجرح الطويل لوحدي وأتحمّل تبعات الآخرين.

تم عقاب اليمن على يد الأمويين لأنهم وقفوا مع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكأن الأمويين يذكرون بيت الإمام الشعري:

ولو كنتُ بوّابا على باب جنةٍ

لقلتُ لهمدانَ ادخلوا بسلامِ

أم أنهم يذكرون سجدة النبي الكريم شكرا لله لما جاءه خبر إسلام همدان وقوله: "السَّلَام عَلَى هَمدَان" مرتين؟!

في حين يقول - في موضع آخر-:"اللهُمَّ! اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ!"

أي ذنب جنيت؟

إن قباحات الآخرين ليست مسؤوليتي لأعاقب عليها!

ولما أفَلَتْ دولة بني أمية خلفتها دولة بني العباس التي يقول كبيرها هارون الرشيد لعامله على اليمن حمّاد البربري:

"أسمعني أصوات أهل اليمن!"

فأسمعه أنين سكان صنعاء ودموعهم!

ما ذنبنا الذي جنيناه؟

نحن اليمنيين المتأخرين ورثنا كل هذه الأحقاد مجتمعة التي انفجرت أمام وجوهنا، وشارك أبناء جلدتنا - من السياسيين الأوغاد - في تعميق جروحنا، وكأن ستينيات القرن العشرين لبست رداءها الدموي من جديد وراحت تكوّر الجغرافيا اليمنية ككرة بين أيدي اللاعبين!

هل قدرنا أن نجتر تاريخنا، وكأننا راكبين آلة زمن ضلت الطريق في مجرى الزمن فظلت تراوح في نفس الحلقة المفرغة؟!

تعيدها كفيلم هابط يتم تكراره.

فنجد أن التاريخ اليمني المعاصر والقريب منه يعاود نفسه كثيرا، حتى يُظن أن استنساخ الأرواح شغال على هذه الأرض!

لماذا على اليمنيين أن يعيدوا نفس الرواية كل مرة، مع اختلاف الممثلين فقط، لكن السـيناريو واحد، بل والمخرج واحد؟!

لماذا؟

أنا اليمني يا حزن اليماني، ويا هوان اليماني في الداخل والخارج.

هوانه وهو يرى كل يوم سـحب الغبار وبقايا الانفجارات تحمل أحلامه وتطوّح بها بعيدا، والسـاسـة يغرقون في المزايدات، والمنظّرون يُغرقوننا في التحليلات، وتستمر حكايات الموت في كل أرجاء هذا البلد المتهالِك حتى أصبحت الحياة في اليمن نوعا من المساومة!

فمتى يستيقظ الناس من هذا الكابوس؟

أخيرا:

وقلْ ربِ ضاقتْ

ولم يبقَ إلاكَ... والأمرُ لكْ! (الشاعر أحمد مطر)

***

ذهول أيام الهزيمة

كنتُ اقرأ بيت الأستاذ البردوني القائل:

كتلفت الذكرى الحميمة...كذهول أيام الهزيمة

واتساءل كيف يكون ذهول أيام الهزيمة؟

صحيح أن الهزائم تملأ تاريخنا العربي المعاصر!

لكن جيلنا لم يعاصر واحدة منها.

حتى جاء يوم ٩ أبريل عام ٢٠٠٣م - الذي تصادف اليوم ذكراه الخامسة عشرة، يوم سقوط بغداد بأيدي الغزاة الأمريكان.

كلنا نذكر ذلك اليوم، وكيف تبخرت القيادة العراقية، وذابت بعد كل تلك التصريحات النارية

"سينتحرون على أسوار بغداد"

لكن الذي انتحر هو العراق!

ودخلت "العلوج" - كما كان يسميها الصحّاف - إلى بغداد بسهولة ويسر من دون طلقة رصاصة واحدة!

(أم قصر) تلك المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب صمدت ١٢ يوم كاملة أمام الغزاة، فكيف بغداد؟!

هذا ما تصورناه جميعاً، ونحن نرى الغزاة ينتقلون من (أم قصر) إلى الناصرية وصولاً إلى بغداد.

حتى حدثت الكارثة.

فعرفتُ مدلول قول البردوني العظيم: "ذهول أيام الهزيمة".

ويا له من ذهول!

إضافة إلى الذهول في ذكرى الذهول، (أم قصر) اليوم في السياج بين الأراضي العراقية والأراضي الكويتية!!

وكل عام وأنتم ذاهلون!

***

عندما يحدثنا التاريخ

توطئة

بداية سأتحدث عن الحرب العالمية الثانية؛ فأنا لا أدري لماذا شبح تلك الحرب "معشعش" في ذهني؟

رغم أني لم أكن معاصرا لها؛ فقد جئت إلى هذه الدنيا بعد انتهائها بـ ٣٠ سنة!

لعل السبب يعود لكتاب "الحرب العالمية الثانية" للمؤرخ اللبناني رمضان لاوند؛ هذا الكتاب الذي ظهرت طبعته الأولى في عام ١٩٦٥م.

كتاب جميل؛ شرح المؤلف تفاصيل الحرب بأسلوب روائي أخّاذ!

يقول في مقدمته:

"الحرب في كل صورها وأشكالها محاولة انتحارية.

إنها إعلان إفلاس المتحاربين في وضع الحلول المناسبة للمعضلات الناشئة بينتهم.

إنهم بهذه الحرب ينزلون بالحضارة من مستواها الأخلاقي الرفيع إلى مستوى شريعة الغاب.

والعدالة لا مكانة لها في هذه الشرعية، وهي تفقد من رصيدها في حياة المجتمع على قدر ما تسببه الحرب من الخراب والدمار وتحدثه من المضاعفات الهدامة".

أما عناوين الفصول فعجب؛ منها:

- هدوء في الجبهة الغربية
- الصليب المعقوف على الاكروبول
- السيبريون يصلون مع برد الشتاء
- الطريق إلى مورمانسك ...إلخ.

وينقل لاوند من مذكرات الطيارين والجنود المشاركين في المعارك من كل الأطراف - كشاهد حي!

أما الصور، فحدّث ولا حرج.

صحيح أن الوثائقيات فاقت الكتاب، خصوصا وثائقيات قناة ناشونال جيوغرافيك سلسلة أبُكاليبس، لكن للكتاب متعته!

***

عندما يحدثنا التاريخ

يحدثنا التاريخ عن سقوط فرنسا في الحرب العالمية الثانية؛ فالفرنسيون الذي اكتفوا بالتخندق وراء خط (ماجينو) ظنا منهم أن حصونهم مانعتهم من السكين الألمانية، لكن جيش الرايخ عبر تلك الخطوط كما يعبر السكين في زبدة طرية!

وعبروا حتى سقطت باريس في غمضة عين في يونيو ١٩٤٠م، ورقص هتلر في نشوة لا مثيل لها عندما بلغه أن قواته تحت (قوس النصر)، كان يرقص حقيقة لا مجازا!

لكن ماذا بعد؟

لم يكف التاريخ عن تقليب أوراقه، وهو يفعل ذلك دائما.

لقد قام الحلفاء بتجهيز جيش فرنسا الحرة، وكان شارل ديجول يقود حكومة المنفى هناك خارج الأراضي الفرنسية، أما في الداخل فيحدثنا المؤرخ اللبناني رمضان لاوند في كتابه الممتع (الحرب العالمية الثانية) عن أعاجيب المقاومة الفرنسية التي شملت باريس لتمتد لكل فرنسا حتى ريفها في تحدٍ صارخ للمحتل النازي ولحكومة (فيشي) التي نصبها ذلك المحتل بقيادة المارشال فيليب بيتان، ذلك المارشال الذي كان للأسف بطل فرنسا ضد الألمان في الحرب العالمية الأولى في معركة فردان الشهيرة عام ١٩١٦م، لكنه أصبح يدهم في الثانية!

الحلفاء بدورهم جهزوا لغزو الساحل الأوربي ومهد لهم سقوط الدوتشي موسوليني عام ١٩٤٣م لتكون إيطاليا بطن أوروبا الرخوة – على حسب تعبير لاوند- جاهزة للانطلاق.

وفي عملية واسعة في الزمان والمكان أقدم الحلفاء على الإنزال الشهير؛ إنزال نورماندي - درة السواحل الفرنسية -

ليكون هذا الإنزال نقطة انعطاف في دالة الحرب العالمية الثانية.

يقود الحلفاء الجنرال دوايت أيزنهاور نفسه – الذي سيصبح الرئيس الرابع والثلاثين للولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك، كان الإنزال في فجر السادس من يونيو عام ١٩٤٤م.

وكانت الاستعدادات له منذ زمن طويل، فالنازيون يعرفون أن هجوم الحلفاء أمر حتمي، ولكنهم لم يعرفوا موعده أو مكان انطلاقه، كانوا يعتقدون أن الهجوم سيتم من أضيق منطقة في القنال على ساحل مدينة كاليه - بناءً على ما سربته لهم ليلى كرامي - نتيجة لذلك تركزت أقوى قواتهم هناك.

وضع الألمان العوائق والتحصينات والاسمنت المسلح وزرعوا ملايين الألغام على طول الساحل وقاموا بنشر ثلاثة جيوش على الشاطئ أي ما يقارب ١,٥ مليون جندي ووضعت هذه الجيوش تحت قيادة المارشال رومل ثعلب الصحراء العجوز.

كان إنزال نورماندي عملية مخابراتية شـــملت مناطق كثيرة منها لبنان!

ذكر درويش الجميل في كتابه (جواســيس حولوا مجرى التـاريخ) عن اللبنـانيـة ليلى كرامي التي ســـربت للألمـان موضعا وزمانا خاطئين عن الإنزال!

(لا ننسَ أن لبنـان في ذاك الزمـان كـانـت تحت الاحتلال الفرنسي)

وكــان الإنزال، لتتقـدم جيوش الحلفــاء إلى بــاريس وتحررها بعد ٤ سنوات من الاحتلال النازي.

يقلّب التاريخ أوراقه دائما ويدعونا للقراءة، لكننا نقرأ بدون بصــيرة، لذا في نهاية المطاف نكتشــف أن هيجل كان محقا!

"الدرس الوحيد الذي نتعلمه من التاريخ، هو أن لا أحدا يتعلم من التاريخ!"

***

رهان في المعتقل!

صديقي البعيد، الذي لم ألتقِ به سوى في فضاء الفيس، دائما يسأل عن أحوالي الشخصية وحال اليمن عامة، مذيّلا تساؤله كل مرة بعباراته "حاولوا أن تكونوا بخير" أو "كونوا دائما بخير.. أرجوكم".

سؤال إنساني له وقعه على نفسك الغائمة تحت أتون الأحداث!

فالسائل شاب سوري هرب من الجحيم الذي تعيشه سوريا – كما نعلم – إلى الجهة الأخرى من العالم لكي يواصل حياته مبدعا، فهو إذن هارب من ظروف مشابهة لظروف اليمن أو أي قطر عربي معاصر في هذا الجغرافية المسماة الوطن العربي الكسير لا الكبير؛ فالحال من بعضه وكلنا في الهمِّ شرقُ، كما يقول أحمد شوقي.

يتساءل وهو هناك في البعيد رغم أن لديه من الهموم ما تشغله عن هذا التساؤل، وأظن أن المكتوي بالنار يحس بآلام الآخرين.

أما أنا فتقع عليّ مسؤولية الإجابة - في كل مرة- التي لا أظنها تسر؛ لكني لا بد أن أجيب إجابة تكون صادقة وفي نفس الوقت تكون مطمئِنة لصديقي النبيل، فأنا لا أريد أن أحمله هماً فوق همومه ولو معنويا.

فكتبتُ مجيبا:

يا صديقي البعيد، نحن هنا في المعتقل، معتقل همومنا الحياتية التي تكبلنا بحبالها القاسية.

نحن في جغرافية منسية لم يلتفت لها العالم المشغول باستثمار جراحاتنا وأحزاننا وانكساراتنا، وتتصدرهم لذلك منظمة الرعب الدولي المسماة (الأمم المتحدة) التي جاءتنا بقضها وقضيضها، حتى يصدق علينا قول الشاعر أحمد مطر:

"ألمْ

ذلك الشعبُ لم يبقَ في جسمهِ

موضعٌ صالحٌ للألمْ!

ألم يَـفْـنَ ما بين نحرينِ:

نحرِ ابن أمِّ الـ.... ونحر الأممْ؟

فكم من دماءٍ

وكم من دموعٍ

وكم من..

وكم.."

ماذا أقول؟

لا شـــيء ســـوى الفراغ المســـيطر على هذه البرّية أو الجغرافية المسماة (اليمن).

هنا حيث صـــوت الطلقات أكثر صـــدى من أغاني الزمن الجميل، والأخبار صـــارت محصـــورة بين قوســـين (قتلوا - خطفوا - اعتقلوا - هربوا - انكسروا).

ومع ذلك – ويا للعجب- ما نزال نعيش وعيون خيالنا تتطلع إلى البعيد الذي نحلم أن يأتي رغم أنه مجهول، لكننا سـنراهن على المجهول؛ ربما سـيكون أفضـل من المشـاهد اليومية الجامدة.

نعم نراهن، أليســـت حياتنا برمتها ما هي إلا مراهنة كبرى؟!

واليمن ألم تصبح لعبة (روليت) كبيرة؟!

ودعني أسأل: هل معنا - كيمنيين - خيار آخر؟

في اليمن أصبح اليوم كل فرد (يدبّر حاله) ولو على موت الآخرين!

يا صديقي، هنا موتٌ أنيق يليق بالحمقى تماما.

لكننـــا نحـــاول – كـــأفراد – ألا نكون حمقى، والرهـــان سيكون: هل نستطيع ذلك؟

أدعُ لنا لعلنا نستطيع.

***

رسالة إلى البردّوني في قبره

رغم علمي أن لا بريد يصـــل بين العالَمين، عالم الأحياء و عالم الموتى، لكنك يا مولانا عبد الله البردّوني لم تمت إلا جسـدا، فأنت يا (مُضـيف الحتوف) لم تكن قصـد الموت، إنما جاء كي تجيء القصيدة!

اليوم ذكراك السـابعة عشـرة، سـنحتفي بها ونحن نردد قولك:

أيها الآتي بلا وجه إلينا ... لم تعد منا ولا ضيفاً لدينا

غير إنا... يا لتزييف الهوى ... نلتقي اليوم برغمي رغبتينا

سترانا غير من كنا كما ... سوف تبدو غير من كنا رأينا

أسفاً ضيعتنا... أو ضعت من ... قبضتينا يوم ضيعنا يدينا

ربما جئنا بلا وجهين أو ... ضاع وجهانا ومرأى وجهتينا

غير أنا كل عام نلتقي ... عادة والزيف يخزي موقفينا!

فهل أخزانا الموقف؟

بصراحة لست أدري، لكن الذي أدريه أننا قد تغيرنا، فهل تراك تغيرت؟

يا مولانا عبد الله البردّوني، هل تدري أننا في حرب، لكنها من دون حكمتها التي تهدّ لتبني، بل غاياتها: أصابوا أطاحوا، ورحنا وهم نعدد كم أرقنا منهم، ومنا أراقوا، لا استرحنا، ولا الخصوم استراحوا!

ورفعنا مع الوطن - ونحن تحت القصف – صوتك مرددين:

فليقصفوا، لست مقصفْ... وليعنفوا، أنت أعنفْ

وليحشدوا، أنت تدري... أن المخيفين أخوفْ

أغنى، ولكن أشقى... أوهى، ولكن أجلفْ

أبدى ولكن أخفى...أخزى ولكن أصلفْ

لهم حديدٌ ونارٌ.. ...وهم من القشِّ أضعفْ!

فهل تسمع صدى الانفجارات وهي تطوّح بالبلد؟

أم أنك في نومك الطفولي، ونحن لنا زغاريد الصـــواريخ الشوادي؟!

***

يـا مولانـا عبـد الله البردّوني، في جحيم الحرب لا نزال ننوح الرجالَ بلا نواحٍ، وكذلك نموتُ كما نحيا بلا رَشَدِ

وقد تستغرب من ذلك، لأن كل فوجٍ يموتُ ننساه بأربعة، حتى لم يعدْ أحدٌ يبكي على أحدٍ، وهكذا صـرنا نردد قولك "يا عمّ ... ما أرخص الإنسان في بلدي".

بل لقد صار أرخص من الرخص نفسه!

حتى أصـــبحَ "كلُّ شـــيءٍ رائجاً منتعشـــاً ...هل ســـوى الإنسان معروضٌ وبائر؟"

الإنســـان هذا هو الإنســـان اليمني، الذي أرخص قيمته السياسيون من كل لون!

أرخصـــوه لأنهم (رخـاص) فـانبطحوا، ولا يزالون على انبطاحهم محافظين،

فلا نســـتغرب أن "يرتقي العهرُ على العهر، إلى...آخر المرقى، لأن السوقَ عاهر".

فتتحرك الأيدي الخفية، لأن المعتدي خلف الســـتار يحث أبطال المســارح، فتصـبح هذي الكباش الآدمية باسـم عالفها تناطح!

ونحن في جحيم الحرب نسأل مستغربين مثلك:

كم إلى كم، تفنى الجيوش افتداءً

لقرودٍ يفنون لثماً وضمّاً

وهذه الجيوش ما تفعل غير تقديم وجبة القتل والموت

فهل أصبح القتلُ بعد القتل طبَّ الأمة الحمقى؟

لمَ لا؟

فقد صـــار قتلُ هذا الزمان خفيَّ الخطى، وبعيدَ المدى، عالميَّ الحيل، حتى أصبحت وحدها النجاةُ المعابة!

وأصبح الموت احتياطاً مثل أبطال المقاهي، ومن اعتياده أصـبح لســان الإنســان في هذه المنطقية الجغرافية المنســية يقول:

غير ذا الموت ابتغي، من يريني

غيره لم أجد لذا الموت طعما

أعشق الموت ساخناً، يحتسيني

فائراً، أحتسيه جمراً وفحما

أرتعيه، أحسه في نيوبي

يرتعيني، أحس نهشاً وقضما

***

مولانا عبد الله البردّوني، ورغم سوداوية الصورة، إلا أن المواطن اليمني لا يزال يترّقب آخر الحرب الذي لا يأتي!

فراح يدندن بقولك:

آخرُ الحرب كبدء الحرب، لا

يبتدي النصرُ، ولا للحرب آخر".

فهل تتذكر عمّار بن ياسر العنسي؟

إنه يسقط كل يوم هنا، يسقط لتصبح "صلواتُ النفط سفيانيةً...والمصلى، لحمَ "عمار بن ياسر".

التقى الحاضر بالماضي، لـــ "أنها نفسُ الضحايا والمُدى...آخرُ التجديد، في شكلِ الوتائر"!

ويكاد الحزن يسألنا:

"ولماذا ينطفي أحبابنا

قبل أن يستنفد الزيت الذبال؟

ثمّ ننسى الحزنَ بالحزن ومن

يا ضياع الردّ - يُنسينا السؤال؟"

وعمَّ يبحث الجميع؟

يقولون إنهم يبحثون عن النصر، وإنه نصرُ الأقوياء بلا فهمٍ... سوى فهم كم باعوا...وكم كسبوا، بعد أن قالوا: أنهم البشرُ الأرقى، لكنهم ما أكلوا...شيئا كما أكلوا الإنسانَ أو شربوا!

لكن اليمن، رغم بخل الغيث ما برحتْ حبلى، وفي بطنها (قحطانُ) أو (كربُ)

وفي أسى مقلتيها يغتلي (يمنٌ)

ثانٍ كحلم صباً ينأى ويقتربُ

وما يزال ينأى ويقتربُ!

والأرضُ لا تزالُ على عهدها، والشمس مازالت تغادي.

***

شعب على رصيف الانتظار

الانتظار ذلك السلوك الذي يعرّفك بشعور الملل عن قرب، ويجعل منك (جملا) صبورا، هذا – طبعا- إن كنتَ تستسيغ شعور الانتظار هذا!

لكن أغلبنا يمل الانتظار ويسوءُه الطابور الطويل الذي يضطره أن يقف في صفهِ حتى يأتي دوره، بل يحاول أن يتملص من هذا (الانتظار) الإجباري بأية حيلة لكي يقضي حاجته بشكل مستعجل، ولو أن يتخطى رقاب العباد!

فنحن الشعوب العربية – واليمنية منها خاصة – شعوب مستعجلة في استخلاص نتائج أي جهد نبذله، ضاربين عرضا بكل قواعد التأني والتريث لمغافلة الزمن وكأننا نؤدي أدوارا مهمة للبشرية!

مع أننا لو نظرنا إلى خلاصة جهدنا في هذا العصر لوجدناه متمثلا في حروبنا ومشاكلنا البينية التي شغلْنا بها

العالَم حتى أظنه يحتاج أن يؤســـس أمما متحدة خاصـــة بنا نحن العرب!

فلمَ العجَلَة؟

تجري شـــعوبنا وتلهث من أجل لا شـــيء ولا مفيد، بل مجرد قبض ريح وملهيات لا فائدة منها؛ المهم هو قضـــاء الوقت، أو بالأصح قتل الوقت – كما يقولون.

لكننا رغم هذه العجلة أو التعجل الذي نتســـم به إلا أننا نصـــب أوقاتنا في الهم الحياتي اليومي الصـــانع منّا (ثيرانا) تدور في الساقية تبدأ من حيث تنتهي، ضاربة مثلا خالدا في الصـــبر الجميل، بل الصـــبر الطويل الذي يشـــبه متســـلســـلة حسابية تسعى إلى المالانهاية أو المجهول!

لكن المنتظِر لدينا هو أحلامنا أو أوهامنا – لا فرق! - هذه هي الوحيدة التي لا يصيبها عَجَلنا العربي بالعدوى وهي تترحل من جيل لآخر – تماما مثل قضايانا السياسية المزمنة!

حتى أصـــاب هذا الانتظار الغريب عن صـــفتنا العجولة نفوسنا بالترهل والكسل فأصبحت شعوبنا (كوالات) متثائبة على فروع أشجار الحياة المعاصرة!

فهي شعوب متواكلة كسولة بسبب التسويف المستمر الذي شـــعاره (لا تؤخرْ عمل اليوم إلى الغد، ما دام تســـتطيع تأخيره إلى الاسبوع القادم)!

فنمارس – نحن العرب- حالة تناقض في ســلوكنا؛ فنحن مســـتعجلون في قضـــاء الأمر الحياتي اللحظي، وفي نفس الوقت كســـالى في تحقيق أحلام كبيرة بل مصـــيرية يجب تحقيقها!

في اليمن مثلا:

نجد المواطن اليمني المعاصر دائما في حالة انتظار!

فهو منتظر أن تهبط عليه معجزة من الســـماء تحل له معضــلة البلد الحالية وهو جالس في زاوية (المقيل) يمضــغ (القات) في سكون ونشوة!

طبعا ينسى أن السماء لا تساعد منْ لا يساعد نفسه.

وهو منتظر لمّا تنزاح الغمة من أجل أن يؤسس مشروعه المؤجل منذ زمن الترك الذين غادروا البلد بداية القرن العشرين!

وهو منتظر أن يستيقظ في الصباح وقد صار ملياردير، وليس أي ملياردير بل منافس لبيل جيتس نفسه!

المجهود الذي يبذله في هذه المعمعة هو الانتظار، وهو لتدينه المفرط هو لا ينسى أن يملأ ساعات - بل سنوات - الانتظار تلك بالاستغفار!

أظن أن الكاتب الإيرلندي صمويل بيكيت مرّ من هنا قبل أن يكتب رائعته (في انتظار جودو)

لكن منْ هو جودو؟!

***

عن الحرب والتعقل

انقطعت علاقتي بأناس منذ عام ٢٠١١م بسبب الآراء السياسية، أو بالأصح الاختلاف في الآراء السياسية، أقول بكل أسف هذا الكلام؛ لأن المفترض أن السياسة مجرد رأي وليست نهاية الكون حتى تقطع علاقتك بالناس، لكن!

وما أغرب الكلام بعد كل (لكن)؛

لكن العرب يرون في تكتلاتهم السياسية صورة "القبائل" التي فقدوها من زمن، لذا تراهم يناضلون من أجلها بكل ما اوتوا من قوة إلا ما رحم ربك، وقليل ما هم.

وهم يزعمون أنهم يمارسون سياسة، ولا سياسة هناك، لأن السياسة هي فن الممكن، ونحن لو تصفحنا الأمر برمته سنجد أنه لا سياسة ولاهم يحزنون، فكل هذه "الكانتونات" الطافية على السطح مجرد واجهة للمحافظة على المصالح والامتيازات والهبات أو للوصول إليها، لذا فدفاعهم المستميت عنها إنما هو دفاع عن المصالح والمغانم ضمن

المحـددات الثلاث- (القبيلـة) و(الغنيمـة) و(العقيـدة)- التي حكمت العقل السـياسـي العربي في الماضـي ولا تزال تحكمه بصـورة أو بأخرى في الحاضـر، كما شـرحها د. محمد عابد الجابري في عمله الفكري (نقد العقل العربي)؛ حيث أصبحت القبيلة محركا للسـياسـة، والرَيع جوهر الاقتصـاد، والعقيدة دافعا للفعل وتبريرا للقمع.

فلمنْ دعوات التعقّل؟

لذا فقد سَـئمتْ من دعوات (التعقّل) التي نرددها، ومَللتْ من صـيحات التحذير التي نطلقها حول النسـيج الاجتماعي الذي انفرط عقده!

فأصبح الحديث عن لمّ الصف، ونبذ العنف وووو...إلخ مثل الآذان في مالطة!

يقول الواقع الحـاضـر إن كـل يوم من الحرب يُخرج سوءات المجتمع اليمني أكثر، حتى نستغرب لما يجري فيه!

الكل ضد الكل، الكل استعاد كل ثاراته القديمة والجديدة، وأصبحت التيارات المختلفة في خندق المواجهة،

فلمنْ دعوات التعقل المنشودة؟

لقد أصبحت دعوات "ترف" في زمن البارود!!

المتصارعون أحرقوا كل سفنهم والتقوا في جبهات القتال على امتداد الجغرافيا اليمنية، حتى المثقفون الذين كنت أعوّل عليهم أن يكونوا صمامات الأمان لتياراتهم انقسموا إلى أنواع متعددة:

منهم المطبّل لتياره، ويستغل ثقافته "والكلمتين التي في رأسه" في تبرير جرائم تياره، ونوع صَمَتَ صموت القبور، وآخر هاجر بعيدا تاركا البلد وما فيها وراح يكيل اللعنات للجميع!

قليلون منْ يصدحون بكلمة الحق على خوف من الفراعين جميعا ومطبليهم من كل لون.

التطبيل لكل طرف من قبل متمصلحيه هو منْ ضيّع هذا البلد ولا عزاء لأحد!

يقول الشاعر الكبير أحمد مطر:

يا واهبَ مملكةِ العقلْ

لا صوتَ بأوطاني

إلا صوتُ الطبلْ!

***

يوم استثنائي في (إب)

يوم الأحد ١٢ أبريل ٢٠١٥م لم يكن يوما عاديا في (إب)، بل كان يوما استثنائيا واستثنائيا جدا!

استيقظت (إب) ذلك اليوم على أخبار عاصفة الحزم التي طالت طائراتها محافظات أخرى كصنعاء وتعز وصعده وغيرها...

(إب) بدأت يومها بشكل عادي، السماء تلبدت بقليل من الغيوم الداكنة بما ينبي بنهار ممطر، ولم يكن أحد يعلم أنه سيكون ممطرا بمطر من نوع آخر!

مرت ساعات الصباح هادئة حتى الظهر، واستمر الهدوء حتى الرابعة عصرا، عندها بدأت سماء إب تمطر مطرا من نوع آخر؛ فقد بدأت طائرات التحالف قصفها لـ(إب) بأول صاروخ أصاب الملعب، صاروخ اهتزت له المدينة التي لم ترَ يوما مثيلا لذلك اليوم.

سـمـاء (إب) التي تمطر خيرا وبركـة يملأ المزارع والشوارع، أصبحت تمطر قذائفا ونيرانا!

تعالت صـراخات الأطفال والنسـاء وهم يبكون مع دوي أول انفجار الذي تطايرت بسببه زجاج نوافذ البيوت المحيطة بالملعب حتى مسافة بعيدة.

هرع العشـرات من الناس إلى الملعب لإسـعاف الجرحى والمصـابين، وهم هناك فاجأتهم ضـربة ثانية طالت أجزاء أخرى من الملعب، فتفرق الناس هاربين يولون الأدبار، أما البعيدون عن مكان الانفجار فقد أحسـوا أثر الضـربة في اهتزاز البيوت وصـراخ الاطفال والنسـاء، وصـدى صـفارات سيارات الاسعاف التي حملت الجرحى إلى مستشفيات المدينة التي أعلنت اسـتنفارا وطلبا ملحا في فصـائل الدم المختلفة لإنقاذ ما يمكن انقاذه.

بعد تلك الضـربتين هدأ الموقف، لكن الفزع الذي طال الناس لم يهدأ وهم يتوقعون ضـربات أخرى خلال السـاعات القادمة.

جاء المغرب، وتعالت أصـــوات المآذن معلنة الصـــلاة فصلى الناس وهم متوجسون، وعمَّ الظلام المدينة مع دخول الليل وانقطاع الكهرباء، لكن هذا الظلام لم يدم فقد بدده انفجار ثالث ملأ الســـماء لهبا ونيرانا واهتزت الأرض للمرة الثالثة، وتعالت الصـــراخات الممتزجة مع هدير الطائرات المُغيرة وهي تنتهك سماء (إب).

بعد فترة عادت الكهرباء وتوالت ضربات طيران التحالف على مناطق مختلفة من المدينة، والناس في قلقهم فهم لم يعيشوا مثل هذا الوضع الذي لم تعرفه مدينتهم المسالمة في يوم من الأيام.

مرت الساعات بطيئة ـ كما هو ديدن ساعات القلق دائما ـ والضربات تنهال بين ساعة وأخرى حتى الحادية عشرة ليلا.

"هل انتهت الضربات أم لا؟"

تساؤل عم الكل، لكن لا أحد يعرف إجابة حاسمة، وكل ما يقال مجرد تكهنات من هنا وهناك.

الكهرباء مستمرة - على غير العادة - والناس متكومون في بيوتهم، وكثير منهم نزح في ساعات النهار المتبقية نحو القرى القريبة.

أصبحت المدينة مدينة أشباح بخلو الشوارع من المارة طيلة المساء.

النوم جفا الكل حتى الأطفال، ومرتادو الفيسبوك يوالون رفع الأخبار والصور على الفيسبوك الذي امتلأ بالجدال و(المهاترات) حول الضربات التي طالت (إب) في ذلك اليوم الاستثنائي جدا.

أخيرا:

صلواتُ النفطِ سفيانيةٌ... والمصلى لحمُ «عمّار بن ياسر»

إنها نفسُ الضحايا والمُدى... آخرُ التجديدِ، في شكلِ الوتائر

الشاعر عبد الله البردوني

***

عاد أيلول

عندما نكتب عن أي حدث كبير، يجب أن نعطيه حقه؛ وخير أمر لذلك هو الابتعاد عن هالته المبهرة وأضوائه اللامعة لكي نستطيع أن نراه في صورته الحقيقة بعيدا عن أي "تزويق" قد يخل من موضوعية الحكم عليه.

ولعل البعد الزمني أهم هذه الشروط، لذا فالكتابة عن ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م لن تكون موضوعية بدرجة عالية أبّان اشتعال النار على جغرافية اليمن آنذاك، لأن الوهج السبتمبري كان سيغطي على الموضوعية التي ننشدها من كاتب التاريخ المحايد.

في حقيقة الأمر لا يوجد مؤرخ محايد، لكن يوجد مؤرخ يجاهد أن يكون محايدا، لأن كتب التاريخ تشبه الظلال التي تنعكس على بوابة كهف أفلاطون!

فكما لا تمثل الظلال الواقع، فلا يشبه ما هو مكتوب في كتب التاريخ حقيقة ما حدث.

ولا ننسى أن التاريخ يكتبه المنتصر، فماذا سيكتب؟

اليوم ونحن على بعد ٥٦ عاما منذ ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م، وما مرت به اليمن من أحداث جسام خلال هذه العقود المنصرمة وخصوصا هذا العقد الذي نحن في خواتيمه، فهل قد ابتعدنا عن وهج ذلك اليوم البعيد حتى نستطيع الكتابة عنه بتجرد؟

الإجابة واضحة: نعم!

أعرف أن كتبا كثيرة كُتبت ووثقت للحدث، لكنها تغلبها الرواية الشخصية من أناس شاركوا في الحدث أو كانوا قريبين منه، ولا أظن أن ذلك يكفي لتكون مرجعا توثيقيا للتاريخ، بل يكون التدوين المؤسسي بالمنهج العلمي في توثيق التاريخ هو المعوّل عليه بعيدا عن الانطباعات الشخصية لفلان أو علان، هذا إذا أردنا تاريخا نستفيد منه لا مجرد سرد لذكريات تقادم بها الزمن مثل حكايات أبي زيد الهلالي.

ثورة ٢٦ سبتمبر وما بعدها

كل ثورة لا تأتي من فراغ، بل تتراكم معطيات تدفع المجتمع لينفجر بتلك الثورة، والثورة السبتمبرية – ليست نشازا عن ذلك – فقد سبقتها إرهاصات مثلت تراكمات لها بدأت هذه الإرهاصات بحركة ١٩٤٨م أو ما سميت بثورة الدستور وبعدها حركة ١٩٥٥م ومن ثم محاولة اغتيال الإمام أحمد في مستشفى الحديدة سنة ١٩٦١م حتى انفجار الثورة في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م.

لكن لتوثيق التاريخ هناك انتفاضات سبقت وعاصرت تلك الحركات لم تلقَ من تسليط الضوء عليها بشكل مكثف؛ أولها انتفاضة المقاطرة عام ١٩٢٢م وبعدها حروب الزرانيق مع الأئمة ابتداء من عام ١٩٢٦م حتى عام ١٩٢٩م، وبعدها مقتل الإمام يحيى حميد الدين عام ١٩٤٨م ولا ننسى انتفاضة حاشد ١٩٥٨م، وأخيراً التيار الطلابي الذي خرج بمظاهرة عارمة في أواخر مايو عام ١٩٦٢م، والأستاذ عبد الله البردوني خير من سلّط الضوء على كل تلك الإرهاصات في كتابه "اليمن الجمهوري".

والذي يظن أن الثورة مجرد تغيير السلطة الحاكمة والمجيء بسلطة أخرى فهو واهم، لأن "الثورة - أي ثورة - ليست هدم نظام سياسي قائم، بل هدم نظام اجتماعي، وبناء نظام جديد.

والثورة، بهذا المقتضى، حركة تراكمية إلى الأمام، فلا تكون ثورة إلا متى خطت بالمجتمع نحو نظام سياسي واجتماعي - اقتصادي أكثر تقدماً من سابقه، وإلا كانت ارتكاساً إلى وراء وثورة مضادة".

فهل صنعت ثورة ٢٦ سبتمبر ذلك؟

أقول صنعت وما صنعت؟

صنعت: نعم، لكن البناء لم يكتمل وشابه الأخطاء التي تراكمت عبر العقود وأفضت لما نحن نعيشه اليوم!

وهذا قدر كل منْ يعيش بذاكرة مثقوبة؛ يقول الفيلسوف الأسباني جورج سانتايانا: "أولئك الذين لا يستطيعون تذكّر الماضي، يُحكم عليهم بتكراره"!

لقد أردنا التغيير لكننا – نحن- لم نتغير، فيصدق قول كارل ماركس: "الثورات أثبتت أنها تغيّر كل شيء إلا الإنسان"!

***

السيرة الذاتية

الاسم: عبدالحفيظ أحمد صالح العمري

تاريخ الميلاد: ٧ ديسمبر ١٩٧٥ م

مكان الميلاد: تعز ـ اليمن

البريد الإلكتروني: abdualamri.75@gmail.com

المدونة: http://knoweyes.blogspot.com (مدونة عيون المعرفة).

المؤهلات:

بكالوريوس (بك) في الهندسة الميكانيكية جامعة الانبار العراق عام ٢٠٠٠ م + دبلوم في علوم الحاسوب من المعهد الوطني للعلوم الإدارية إب ٢٠٠٨م.

الكتابات:

١/ معدا لبرنامج تلفزيونية: (لســـان عربي) و(دلائل الإعجاز)

٢/ كاتبا في صحف عربية ويمنية.

المشاركات:

١/ مهرجان القصـــة والرواية اليمنية الرابع الذي أقامه منتدى نادي القصـــة اليمني (المقه) في صـــنعاء للفترة من ٢٠٠٨/٧/٢٨م إلى ٢٠٠٨/٧/٣٠م.

٢/ مهرجان الأدب اليمني الذي أقامه الاتحاد العام للكتاب والأدبـاء اليمنيين في عـدن للفترة من ٢٠١٠/٥/٢٤م إلى ٢٠١٠/٥/٢٧م.

المنشورات:

*** يوجد كتاب مطبوع واحد هو (فضـــاء العلم) وهو مجموعة مقالاتي العلمية صـــادر عن دار نور ألمانيا في مارس ٢٠١٧م.**

https://www.morebooks.de/bookprice_offer_276735e18a510ac38b92f23935a168cc1da2a4e1?auth_token=d3d3Lm5vb3ItcHVibGlzaGluZy5jb206ODJjMmI3MGU2YWQ4ZDc1MDNiNTdlNGRhMjc0YTk2MTA%3D&locale=gb&currency=EUR،

وقد نشرت للآن ٢١ كتابا إلكترونيا، وهي:

١ـ آفاق الثقافة العلمية ـ ديسمبر ٢٠١٤م.

٢ـ عالَم الذرة ـ ديسمبر ٢٠١٤م.

٣ـ التلوث الضوضائي ـ ديسمبر ٢٠١٤م.

٤ـ الزمن من العصـــور القديمة إلى آينشـــتاين ـ يناير ٢٠١٥م (ترجمة) .

٥ـ هذا زمان النانو ـ يناير ٢٠١٥م (ترجمة).

٦ـ هـل نحن وحـدنـا في الكون؟ ـ فبراير ٢٠١٥م (ترجمة).

٧ـ حكاية النسبية ـ مارس ٢٠١٥م.

٨- عالَم من المعادلات - أبريل ٢٠١٥م (ترجمة).

٩- ما هو الواقع؟ - سبتمبر ٢٠١٥م (ترجمة).

١٠- عالَم يتساقط – أكتوبر ٢٠١٥م.

١١- عندما تقع الذرات في الحب– فبراير ٢٠١٦م.

١٢- التفتوا إلى الدنيا واتركوا التاريخ- سبتمبر ٢٠١٦م.

كلها صدرت عن دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

صدر عن كلاميو:

١٣- العيش في زمان السندوتش - سبتمبر ٢٠١٥م.

http://en.calameo.com/books/003269328a596353a9fd5

١٤- لماذا؟ أنت تسأل والفيزياء تجيب (مشاركة في الترجمة) – يوليو ٢٠١٦م.

١٥- أضـــغاث فيســـبوك (خواطر وذكريات) - أكتوبر ٢٠١٦م.

١٦- ومضات النور (مقالات علمية) – أبريل ٢٠١٧م.

١٧- على قـارعـة الويـب (مقـالات تـأملات) – يونيو ٢٠١٧م.

١٨- هذا الكتاب (حفيف أوراق) - ج١(عروض كتب) - سبتمبر ٢٠١٧م.

١٩- حديث القرآن (مقالات عن القرآن الكريم) - يونيو ٢٠١٨م.

٢٠- صدى الزمان (خواطر وذكريات) - أبريل ٢٠١٩م.

٢٠- هذا الكتاب (أحاديث في زمان الحرب) - (مقالات) - فبراير ٢٠٢١م.

حسابي في الفيس:

https://www.facebook.com/atomsandequations

***

إنـها الحرب... سقوط كل القوانين.

إنـها الحرب... سـقوط إنسـانية الإنسان ودخوله عالم الغاب.

إنـها الحرب... تراجع عن كـل مـا كسبناه في رحلة الحضارة.

إنـها الحرب... تفتت الجغرافيا تحت معاول استحضار خلافات التاريخ.

إنـهـا الحرب... تحـاور مجنزرات القتال بدلا من تحاور الإنسـان مع الإنسان!